سلسلة كتاب العميد

(٢)

انتهاج البلاغة في نهج البلاغة

انتهاج البلاغة في نهج البلاغة.- الطبعة الاولى.- كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، قسم النشر، 1443 هـ. = 2021 .
80 صفحة ؛ 24 سم. (سلسلة كتاب العميد ؛ 2)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
1. الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى، 359-406 هجري -- نهج البلاغة. 2. علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام، 23 قبل الهجرة-40 هجري -- حديث. 3. المجاز (بلاغة) أ. العنوان.

LCC : BP193.1.A2 N375 2021
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤١١٥) لسنة ٢٠٢١

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات

العنوان: انتهاج البلاغة في نهج البلاغة

سلسلة كتاب العميد (٢)

النَّاشر: العتبة العبَّاسية المقدَّسة – مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات – قسم النشر

الإشراف العام : أ.د. شوقي مصطفى الموسوي

المتابعة والتنفيذ: رضوان عبد الهادي السلامي

الادارة الفنية: م.م علي رزاق خضير

الإخراج الطباعي: احمد مصطفى – احمد نعمة

تصميم الغلاف: علي طالب

عدد النّسخ: ٢٥٠

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ – ٢٠٢١م

حقوق النَّشر والتَّوزيع محفوظة للعتبة العبَّاسية المقدَّسة

مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات.

الرمز البريدي للعتبة العباسية المقدسة: ٥٦٠٠١

رقم صندوق البريد (ص.ب): ٢٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَلْيَعْفُوا
وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ
اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

صدق الله العلي العظيم

سورة النور، الآية: ٢٢ .

المحتويات

كلمة المركز ٩

دلالة المجاز اللغوي في نهج البلاغة ١١

توطئة ١٢
مفهوم المجاز بين البلاغيين وشارحي النهج ١٣
أثر المجاز في التطور الدلالي لألفاظ النهج ١٧
التغير الدلالي في النهج بين المجاز والنقل ٢٠
المجاز اللغوي في النهج بين الأصلين الحسي والمعنوي ٢٣

التوازي في النهج البلاغة دراسة في الدلالة التركيبية ٣٥

توطئة ٣٦

القرآنيّة في النهج البلاغة.....٤٩

التمهيد ٥٠
الفصل الاول..... ٥٣
النمط الأول القرآنية المباشرة غير المحورة ٥٣
الفصل الثاني ٥٧
النمط الثاني القرآنية المباشرة المحورة..... ٥٧
الفصل الثالث ٦٠
النمط الثالث القرآنية غير المباشرة المحورة..... ٦٠
الخاتمة ٦٢

الاتساق الصوتي في نهج البلاغة (التنغيم أنموذجاً) ٦٧

التنغيم ٦٨
أثر التنغيم في تماسك النَّص ٦٨
أنواع النغمات ٦٩
النغمة المستوية ٧١
النغمة الصاعدة ٧٤
النغمة الهابطة ٧٥
الخاتمة ٧٧

كلمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم ..

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين أجمعين .. أما بعد ..

يطل علينا قسم النشر التابع لمركز العميد للبحوث والدراسات في العتبة العباسية المقدسة وعلى جميع أحبائنا القراء من باحثين ومثقفين وادباء ومبدعين ، بمشروعه الفكري والثقافي المتمثل بتبني طباعة الدراسات والبحوث العلمية ذات الجنبة الفكرية التي تأتي ضمن (سلسلة كتاب العميد) الذي يحتضن بحوث منتقاة من مجلة العميد المحكمة التي تعنى بالدراسات الانسانية وتضمينها في كتاب يطبع ليكون في متناول أيدي القراء الاعزاء لتزداد المسؤولية على مركز العميد ، كلما استمر الإنتاج وممّا يضاعفها أنّ يكون الإنتاج معرفياً، والمنتج يمثّل جهة ذات قيمة عقائدية في المجتمع، لذا يمثّل صدور كتابنا الحالي المعنون بـ (انتهاج البلاغة في نهج البلاغة) انجازاً فكرياً في المسيرة العلمية المتواصلة لقسم النشر لبلوغ إحدى سلالم المسؤولية تجاه قرائها، ممّا يجعله قبالة تحدٍ ثقافي يزداد مرة بعد أخرى.. فليس من السهل اختيار موضوعة فكرية تكون ذات قيمة محورية ؛ يحفر فيها الباحثون، فاستقرت رئاسة قسم النشر على اختيار بعض الدراسات ، الاولى جاءت بعنوان (دلالة المجاز اللغوي في نهج البلاغة) والثانية (التوازي في نهج البلاغة- دراسة في الدلالة التركيبية) بينما الدراسة الثالثة جاءت بعنوان (القرآنيّة في نهج البلاغة) وصولاً الى الرابعة التي توسمت بعنوان (الاتساق الصوتي في نهج البلاغة) ..

من هنا نستطيع القول بان موضوعة التداول في نهج البلاغة لسيد البلغاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)؛ والحفر في هذا الموضوع من جهات معرفية متنوعة، جاء بمثابة رغبة من المركز، للكشف عن التفاصيل : صوتياً وبنائياً وتركيبياً ودلالياً، تاركين الوجوه الأخرى لاصدارات لاحقة بعونه تعالى .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات

قسم النشر

دلالة المجاز اللغوي في نهج البلاغة

م.د .جنان ناظم حميد

الجامعة المستنصرية

كلية الاداب

قسم اللغة العربية

توطئة

اللّغة تتطوّر تطوّرا دائما مستمرّا في أصواتها ومفرداتها وصيغها وتراكيبها، وقد أصبح هذا أمرا مقرّرا أكّدته الدراسات اللغوية التاريخية، واللغة في تطورها تسير على أسس ومبادئ لا مكان فيها للحرية الفردية المطلقة في الكلام، ولذا لم تثبت دلالة الألفاظ على حال واحدة، بل كل لفظة معرضة لان تتغير دلالتها على مدى طويل أو قصير، وهذا التغير الدلالي غير مقصور على مرحلة من مراحل حياة اللغة دون أخرى، ولا على مستوى لغوي دون غيره، وإنما هو عام دائم لا ينقطع إلا بموت اللغة؛ لأنه خاضع لقوانينها. وتعد اللغة العربية من أهم اللغات الحية التي تعرضت لظاهرة التغير في دلالات ألفاظها.

وقد تنبه اللغويون منذ القدم على التطور الدلالي وتغيرات المعنى التي تعتري ألفاظ اللغة عبر تاريخها الطويل، ونجد ذلك في كتاب (الزينة) لأبي حاتم الرازي (ت٣٢٢هـ) الذي بين فيه تغيرات المعنى في طائفة من الكلمات الإسلامية، ومثله فعل ابن فارس في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة)، اذ خصص بابا نبه فيه على اثر الإسلام في تطور دلالات الألفاظ، فضلا عن تفاسير القرآن التي عنيت بالدلالات الجديدة للألفاظ بعد الإسلام.

وقد بحث المحدثون في التطور الدلالي وتغيرات المعنى عن طريق ما سموه بعلم الدلالة التاريخي الذي يعنى بدراسة تغير المعنى عبر الزمن[١]، وعرف أيضاً بالتأصيل الدلالي[٢]. فذكروا مظاهر للتطور الدلالي وتغير المعنى. وهي: تخصيص الدلالة وتعميمها، ورقي الدلالة وانحطاطها، و نقل الدلالة من المجال الحسي الى مجال حسي آخر، أو نقل المعنى من مجال حسي إلى آخر معنوي، أو بالعكس[٣].

وتعد ألفاظ نهج البلاغة مثالا فصيحا يمكن الاحتكام إليه في تتبع التغير الدلالي للألفاظ إذ اهتم شرّاح نهج البلاغة بمتابعة تلك التغيرات الدلالية لجملة من ألفاظ النهج، وهذا الاهتمام جاء في جانبين: الأول تنظيري، والآخر تطبيقي .فعلى الجانب التنظيري بيّن

الشارحان البحراني والخوئي في مقدمة شرحيهما للنهج تغيرات المعنى من خلال بحثهما للحقيقة والمجاز والاستعارة، فضلا عن تصريحات الشارح المعتزليّ في بعض معالجاته لألفاظ النهج التي طرأ عليها انتقال في دلالاتها ،إذ صرح بحصول التغير في المعنى موجها إياه في معظم المواضع.

مفهوم المجاز بين البلاغيين وشارحي النهج

حد الشارح البحراني (المجاز) بقوله: «ما أفيد به معنى غير ما اصطلح عليه في أصل المواضعة التي وقع التخاطب بها لعلاقة بينه وبين الاول»[٤]، ويفهم من حد البحراني للمجاز اشتراطه حصول النقل من معنى اول الى ثان يختلف عنه، مع ارتباط المعنيين بعلاقة ما، وقد بين البحراني مراده بالمعنى الاول بانه المعنى الذي شاع استعماله لدى الجماعة اللغوية حين قرنه بعبارة (التي وقع التخاطب بها)، وهذا خلاف ما ذكره الدكتور ابراهيم انيس الذي اتهم القدماء بالضعف في علاجهم للمجاز، لانهم «وجهوا كل عنايتهم الى نقطة البدء في الدلالة، وركزوا نظرتهم نحو نشاتها، فتصوروا ما سموه بالواضع الاول، وتحدثوا عن الوضع الاصلي ...ولم يدركوا ان حديثهم عن نشأة الدلالات ليس في الحقيقة الا خوضا في النشأة اللغوية للإنسان، تلك التي أصبحت من مباحث ما وراء الطبيعة، التي هجرها اللغويون المحدثون بعد أن يئسوا من إمكان الوصول في شأنها إلى رأي علمي مرجح، وأصبحوا الآن يقنعون ببحث اللغة وتطورها في العصور التاريخية التي خلفت لنا آثاراً لغوية مدونة ومنقوشة»[٥].

والنظر الى المجاز من ناحية الوضع الاول «يعكس تصورا استاتيكيا ثابتا للغة .وكأنّ اللغة قد حددت معنى حقيقيا ثابتا لكل لفظ من الالفاظ ان خرج عنه كان مجازا»[٦]، وهو أمر يصعب إدراكه لأنه «مهما رجعنا إلى الوراء وتوغلنا في القدم ،ومهما كانت الفترة التي نختارها، فان اللغة تظهر لنا على انها تراث من الفترة السابقة للفترة التي نحن بصددها»[٧]،

الا ان الشارحين البحراني والخوئي لم يتناولا مسألة الحقيقة والمجاز من ناحية الوضع الأول للغة، وإنما نظرا إليها من ناحية الاستعمال واستقرار الدلالة[٨]، فالحقيقة يكسبها اللفظ عن طريق الاستعمال اذا استقرت دلالته واصبحت مرتبطة به، اما المجاز فهو اكتساب اللفظة للدلالة عن طريق الاستعمال – ايضا – لكن في غير ما وضع له[٩].

والشارح البحراني نظر الى المعنى الاول للفظة على انه المعنى الذي شاع استعمال الناس له، لا على انه المعنى المبدوء به في نشأة اللغة، ولذلك نجده يقرن الى جانب أصل الاصطلاح عبارة (الذي وقع التخاطب به)، فليس المقصود أنَّ الأصل الحقيقي للدلالة هو الأصل الأول لوضع اللغة في طور نشأتها، وانما هو المعنى الذي جرى به الاستعمال مستقراً قبل أن يشهد شيئاً من التغيير.

والاستعمال اللغوي هو اساس تغير الالفاظ دلاليا لأنه هو الذي يحدد معنى الألفاظ ومدى شيوع ذلك المعنى او اندثاره، فالاستعمال هو وسيلة احياء اللغة ،ولذا عدّ من أهم عوامل التطور الدلالي للالفاظ[١٠]، وهذا ما أشار اليه علماء اللغة والتفسير ايضا[١١]. وقد أكد البحراني غلبة الاستعمال مقياسا للحكم بالأصل الأول للفظة، حقيقة هي أم مجازاً؟، فقال في شرح (الدابة): انه لفظ «وضع لكل ما يدب ثم خص بالفرس، فصار حقيقة عرفية، ثم استعمل بعد ذلك في الحمار فيعلم انه مجاز فيه الى أن يغلب الاستعمال عليه، فيصير حقيقة عرفية أيضا»[١٢]، فهذا النص واضح في ان غلبة الاستعمال تعد أصلاً للمعنى الذي يصير حقيقة باتفاق الجماعة اللغوية عليه، فان كان هذا الاتفاق في عرف جماعة معينة سمي حقيقة عرفية، ونلاحظ من تخصيص معنى (الدابة) في عرف أهل العراق بالفرس[١٣]، بعد ان كان عاما في كل ما يدب، ولانه لكثرة استعماله عند أهل العراق بهذا المعنى صار حقيقة عرفية عندهم ،ولما استعمل للدلالة على الحمار عند أهل مصر فيما بعد كان مجازا لحصول الانتقال من الاستعمال الشائع في الفرس الى تخصيصه بالحمار، فاذا غلب

الاستعمال مرة ثانية على المعنى الجديد صار حقيقة مرة ثالثة، وهذا الذي ذكره البحراني في نسبية الحقيقة والمجاز قد نبه عليه من قبله الشارح المعتزليّ الذي بين ان الحقيقة العرفية «هي التي كثر استعمالها، وهي في الاكثر مجاز»[١٤]، وأشار الخوئي إلى انها مجاز لحصول النقل فيها من معنى إلى آخر، إلا أنها حقيقة لكثرة الاستعمال فيها[١٥].

ونبّه اللغويون القدماء على مسألة نسبية الحقيقة والمجاز، فقد نص ابن جني على ان المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة[١٦]، وهذا ما اقره الدرس اللغوي المعاصر، فالألفاظ متناهية، والمعاني غير متناهية، «فالكلمات لا تستعمل في مواقع اللغة تبعا لقيمتها التاريخية، فالعقل ينسى خطوات التطور التي مرت بها، إذا سلمنا بأنه عرفها في يوم من الأيام، وللكلمات دائما معنى حضوري محدد باللحظة التي تستعمل فيها، ومفرد خاص بالاستعمال الوقتي الذي تستعمل فيه»[١٧].

وإذا كان المجاز عند البحراني[١٨] هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له بالتحقيق في اصطلاح التخاطب مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك الاصطلاح[١٩]، فهو عند الشارح الخوئي «الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له من حيث هو كذلك لعلاقة»[٢٠]، وقد أخرج الخوئي بقيد الحيثية «مثل لفظ الصلاة ،اذا استعملها المتشرع في الأركان المخصوصة، فانه وان كان يصدق عليه أنه لفظ استعمل في غير ما وضع له لغة الا إنّ استعماله له ليس من هذه الحيثية، بل من حيث وضعه لها عندهم»[٢١].

أي انه اقر بحصول الانتقال في معنى الألفاظ الإسلامية من أصولها اللغوية إلا انه انتقال من جهة الشارع لا من جهة اللغويين، ولذا لم يسمّ هذه الألفاظ بالمجاز ،وإنما هي في نظره حقائق شرعية لشيوع استعمالها، وهو بهذا يعرض للخلاف الدائر بين العلماء حول الألفاظ الإسلامية، إذ انقسم العلماء بين منكرين للمجاز في اللغة ،ومؤيدين له، فذهب فريق من العلماء الى اشتمال اللغة على المجاز حتى غالى بعضهم ورأى أن اللغة في جملتها مجاز[٢٢]، ومنهم أبو عليّ الفارسيّ، وابن جنيّ الذي يقول:

«اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة»[٢٣]، والفريق الثاني انكر حصول المجاز في اللغة والقرآن الكريم بدعوى صيانة كتاب الله من المجاز، لانه بنظرهم اخو الكذب، ويفضي الى الالباس على المخاطب، واغلب اصحاب هذا الفريق من الاصوليين[٢٤]، اما الفريق الثالث فمقتصد يرى وقوع المجاز في لغة العرب، ولغة القران الكريم الى جانب وقوع الحقيقة، وأغلب أصحابه من البلاغيين[٢٥].

وحصر الأصوليون خلافهم حول وقوع المجازات في القرآن الكريم[٢٦]، فمنهم من منع القول بانتقال معاني الالفاظ الاسلامية، وهو مذهب الباقلانيّ، الذي ذهب الى انها الفاظ باقية على اصل وضعها اللغوي مع زيادة شروط عليها من الشارع[٢٧]، على حين أجاز المعتزلة نقل الالفاظ اللغوية الى معان شرعية بلا علاقة بين المعنى اللغويّ والشرعيّ[٢٨]، ومنهم من قال بالنقل فيها مع وجود علاقة بينالمعنيين[٢٩].

والحقيقة ان هذه الالفاظ الاسلامية تغيرت دلالتها سواء بنقلها من معناها اللغوي الى معناها الشرعي ام ببقائها على اصل وضعها اللغوي مع زيادة شروط عليها من الشارع، لأن هذه الشروط هي سبب للتغير الدلالي[٣٠]. ومن حد البحراني والخوئي للمجاز نجدهما من المقرين بحصول النقل في معاني هذه الالفاظ، مع وجود علاقة رابطة بين المعنيين اللغوي والشرعي، فهي عند البحراني (مجازات) ،وعند الخوئي(حقائق شرعية). وهذا ما أقره الدرس الدلالي الحديث، الذي وسم هذا الانتقال بانه تخصيص للدلالة بالمعاني الشرعية[٣١].

أثر المجاز في التطور الدلالي لألفاظ النهج

كثيرا ما تتغيير دلالة الألفاظ العربية من مجال الى آخر لا على وجه التخصيص او التعميم وانما على وجه المخالفة[٣٢] ويحصل الانتقال «عندما يتعادل المعنيان»[٣٣] الحقيقي والمجازي، «فالمعنى الجديد هنا ليس اخص من المعنى القديم ولا اعم بل هو مساو له، ولذلك يتخذ هذا الانتقال المجاز وسيلة له لما يملكه من قوة التصرف في المعاني»[٣٤]، ويعدّ المجاز هو المحرك للطاقة التعبيرية في اللغة[٣٥]، وبه تبتعد الالفاظ عن الخمول والرتابة بتجدد المعاني[٣٦]. والانتقال من مجال الى اخر جانب مهمّ في تطور الدلالة،وذلك لتنوعه واشتماله على انواع المجازات والاستعارات.وهو لا يتم الا بتوافر جملة من العلاقات بين المعنى المنقول والمنقول اليه، «ولذا يحصل بطريقين: الاستعارة، اي المجاز الذي علاقته علاقة التشبيه، والمجاز المرسل ،وهو الذي تكون علاقته غير التشبيه، كالسببية، والحالية، والمحلية، و الجزئية ،والكلية»[٣٧] وغير ذلك من العلاقات المجازية[٣٨]، وقد نبه القدماء على هذا النوع من التغيير الدلالي، وذلك في حديثهم عن المجاز وعلاقاته[٣٩].

وقد تجلى هذا الضرب من التغيير الدلالي لدى شراح النهج من جانبين:الأول أنهم نظّروا للمجاز والاستعارة ببحث مستقل كما في مقدمتي البحراني والخوئي ،اللذين اشترطا في تعريفهما للمجاز وجود العلاقة بين المعنى المنقول، والمنقول منه ،متابعة منهما لصاحب المحصول[٤٠]، الذي استدرك على سابقيه من الاصوليين[٤١]فاشترط هذا القيد من المناسبة بين المعنيين لحصول الانتقال في المعنى، وذلك تحرزا من الالفاظ المرتجلة. ولولا هذه العلاقة لكان المجاز وضعا جديدا. وهذا ما أكده البحراني باشتراطه «ان يكون النقل لمناسبة بين المعنيين، والا لكان الثاني مرتجلا»[٤٢]. وقد بين المحدثون أهمية العلاقة الرابطة بين الأصل والفرع؛ لأنها القرينة الدالة على عملية الانتقال الدلالي، فـ «الدليل المشروط في هذا التحـول هو بمثابة الصريح على تعمد الباحث عصـيان أحد بنود العقد في منطوقه ومضمونه، ويقوم الدليل مقام الجسر الرابط بين اختلال توازن أنسجة المواضعة والمحافظة

على الطاقة الابلاغية في الحدث اللساني»[٤٣]. وقد استقصى الشارحان هذه العلاقة المجازية ،فأحصى البحراني منها اثني عشر صنفا، على حين أحصى الخوئي خمسة وعشرين[٤٤].

وقد خص الشارحان علاقة المشابهة بـ (الاستعارة) التي عرفها البحراني بانها «استعمال اللفظ في غير ما اصطلح عليه في اصل المواضعة التي بها التخاطب لاجل المبالغة في التشبيه»[٤٥]، فعلاقة المشابهة هي الفاصل بين المجاز والاستعارة، اذ يعتمد انتقال الدلالة في الاستعارة على المشابهة بين المدلولين، على حين يكون انتقال مجال الدلالة في المجاز المرسل لعلاقة غير المشابهة بين المدلولين[٤٦]. ونبّه البحراني على ان الاستعارة تأتي بالدرجة الثانية بعد المجاز في حصول الانتقال الدلالي، وذلك في معالجته للفظة (النفس) الواردة في قوله عليه السلام يصف من حوله: (**جَرَّعْتُمُوْنِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا**)[٤٧]، اذ قال: «انفاسا مجاز في الدرجة الثانية، فان النفس حقيقة لغوية في الهواء الداخل والخارج في الحيوان، ثم استعمل عرفا لمقدار ما يشرب في مدة ادخال الهواء بقدر الحاجة، اطلاقا لاسم المتعلق على المتعلق، ثم استعمل هاهنا في كل مقدار من الهم يرد عليه من قبل اصحابه وقتا فوقتا، وهي درجة ثانية من المجاز»[٤٨].

فالاستعارة في هذه اللفظة هي العلاقة الثانية، المؤدية الى الانتقال المجازي للفظة (النفس) من الهواء المتنفس الى مقدار الهم الواقع عليه عليه السلام. اما العلاقة الاولى لانتقال المعنى في هذه اللفظة فهي علاقة التعلق التي انتقلت بها اللفظة من معنى الهواء الى النفس الذي يحتاجه الانسان، فتعاقب على هذه اللفظة انتقالان دلاليان ،وليس انتقالا واحدا، فكانت الاستعارة الدرجة الثانية من المجاز كما ذكر البحراني.

وخص الخوئي هذه المسالة ببحث مستقل عنوانه (جواز سبك المجاز على المجاز)، اذ تابع في هذا التجويز ما أقره الزمخشري في أساس البلاغة من تعاقب انتقالين على لفظة واحدة، وهو ما عبر عنه المحدثون بـ «قدرة الكلمات على اتخاذ دلالات متنوعة تبعا للاستعمالات المختلفة التي تستعمل فيها، او على البقاء في اللغة مع هذه الدلالات»[٤٩]، اذ يزداد معنى الكلمة تغيرا كلما ازداد استعمالها.

وقد مثل الشارح الخوئي لهذه الانتقالات بلفظة (النطح) التي يراد بها «تقابل الكبش ذي القرن مع مثله للمضاربة والتناطح، ثم اطلق مجازا على الصيد المظاهر على الصياد المواجه له بعلاقة المشابهة، فكانه يستقبل الصياد لينطحه بقرنه، وهو مشؤوم عند الصيادين، ثم استعمل في الرجل المشؤوم بعنوان الاستعارة، فيكون مجازا بمرتبتين»[٥٠].

اما الجانب الثاني في بحث الشّرّاح هذا النوع من التغير الدلالي، فيبرز في تلمسهم الفاظ النهج التي اعتراها تطوّر دلالي. وفي هذا الجانب ركز الشّرّاح على مسألتين:

الأولى: هي التنبيه على الأصل الأول الذي انتقل منه المعنى، وبيان نوع العلاقة المؤدية الى هذا الانتقال. وهي سمة اشترك فيها شراح النهج جميعا لأنها تمنح الدارس ثراء وفهما يمكنه من الوقوف على الصلة المعنوية بين الاصل والفرع مما لو درس منقطعا عن جذوره التاريخية. وقد اهتم المحدثون بهذا الاصل، وأطلقوا عليه المعنى الأساسي او المعنى المركزي[٥١]. اذ تتفرع منه المعاني الأخرى بنوع من الصلة[٥٢]. ولحرص الشّرّاح على تلمس العلاقة المؤدية الى الانتقال بدلالة اللفظ من مجال الى اخر، لجؤوا الى التاويل لهذه العلاقة إنِ استغلق وضوحها لديهم. من ذلك ما بينه السامرائيّ من انتقال دلالة لفظة (انصاحت)في قوله عليه السلام في الاستسقاء: (**قَدِ انْصَاحَتْ بِجِبَالُنَا**) [٥٣]، من المعنى الاصلي، وهو الشق الى معنى الجدب والجفاف ،لعدم ظهور العلاقة المؤدية الى هذا الانتقال، فصرح السامرائيّ بالحاجة الى التاويل لاستظهار هذه العلاقة قائلا: «انصاحت، اي: جفت الجبال وجدبت، والاصل في الفعل انصاح هو بمعنى انشق، ولا سبيل الى هذا إلا باللجوء الى التاويل توسعا»[٥٤].

التغير الدلالي في النهج بين المجاز والنقل

ورد عند الشّرّاح التصريح بمصطلح (نقل المعنى)، من ذلك انتقال دلالة لفظة (النكس) من السهام الى الضعيف من الرجال كما في قول الخوئي: «النكس اصله في السهام، ونقل الى الضعيف من الرجال»[٥٥].

وقد بين المعجميون العلاقة المسوغة لهذا الانتقال في الدلالة، بان (النكس) هو السهم الذي انكسر فوقه فجعل أعلاه أسفله ولذلك يكون رديئا، وبهذه الرداءة شبه به الرجل الدني. وأكثر ما اصطلح الشّرّاح على (نقل المعنى) بعبارة: (الاصل)، ثم اصطلحوا على المعنى الجديد الذي انتهت اليه الدلالة بعبارتي: ثم غلب في، ثم كثر في[٥٦]. وبيّن الشّرّاح (نقل المعنى) من خلال ذكر العلاقات المؤدية لهذه الانتقالات ،ومن ابرز تلك العلاقات التي ذكروها علاقة المجاورة، كما في لفظة (العذر) التي تعني «فناء الدار، وانما سميت تلك الحاجة عذرة؛ لانهابالافنية كانت تلقى، فكنى عنها بالعذرة كما كنى عنها بالغائط»[٥٧]. وكذا لفظة (الحُجْزة) إذ هي في الأصل «موضع شد الازار، ثم قيل للازار حجزة للمجاورة»[٥٨].

ومن العلاقات الأخرى علاقة المشابهة، كما في لفظة (صياصي)التي انتقلت من القرون، الى معنى الحصون، بعلاقة المشابهة في التحصن والامتناع، اذ بين الشّرّاح ان «اصل الصياصي القرون، ثم استعير ذلك للحصون؛ لانه يمتنع بها كما يمتنع ذو القرن بقرنه»[٥٩]. ومنها علاقة المصاحبة، كما في (الحداء)، اذ بين الشّرّاح انتقال دلالته من سوق الابل الى الصوت المصاحب للسوق[٦٠]، و(الوغى) الذي هو «في الاصل كلمة تعرب عن الأصوات الشديدة المتصلة، ولما اقترنت الحرب بالصوت والضجيج والجلبة تحولت لها فكانت بمعناها»[٦١]. وغير ذلك من العلاقات[٦٢]. وفي شروح النهج امثلة كثيرة للانتقال من المجال الدلاليّ المحسوس إلى المجرد (المعنوي) أو بالعكس. لكن امثلتهم للانتقال من المجال المحسوس إلى المجرد فاقت أمثلة الانتقال من المجرد إلى المحسوس بنسبة كبيرة.

وهذا يوافق ما توصل اليه علم الدلالة الحديث[٦٣] الذي يرى أن الأصل الحسي يفترض ان يكون أقدم المعاني وأقربها إلى ظروف المكان والزمان التي عايشها أهل اللغة[٦٤].

وأمثلة الانتقال الدلالي من المجال المحسوس الى المعنوي انماز البحراني من بين أقرانه بالتصريح بانتقالها. ومنها لفظة (النهج) في (نهج البلاغة)، اذ ذكر البحراني ان «نهج البلاغة استعارة لطيفة لهذا الكتاب، لان النهج حقيقة في الطريق الواضحة المحسوسة، فوجه المشابهة ان الطريق لما كانت محل الانتقال بالمشي وقطع الاحياز المحسوسة من واحد الى اخر، كذلك الذهن ينتقل في هذا الكتاب»...[٦٥]. فهذا صريح بأن لفظة (النهج) انتقلت دلالتها من الطريق الذي ينتقل فيه الماشي الى الكتاب الذي تنتقل فيه الافكار. فهو انتقال من المحسوس الى المعنوي. ومنها لفظة (النكت) اذ بين البحراني ان النكت في الأصل «هو الاثر في الشيء يتميز بعض اجزائه عن بعض... ومنه رطبة منكتة، اذا بدا إرطابها، ثم عدي الى الكلام والامور المعقولة»[٦٦]. و(المثاقيل) لدى البحراني «جمع مثقال، وهو ما يوزن به الذهب والفضة، ويكون حذاء لها، ثم كثر استعماله حتى عدي الى الموزون ايضا،فيقال:مثقال مسك ونحوه،ثم عدي الى الامور المعقولة والمقادير منها، فقيل: مثقال فضل»[٦٧].

ومن أمثلة الخوئي لهذا الضرب من التطور الدلالي نعته الماديات بعبارة (الاجسام) التي تنتقل بالاستعارة للمعنويات. كقوله في لفظة (الغلظة): إنّها الخشونة،والاصل في هذا اللفظ «ان يستعمل في الاجسام، لكن قد يستعار للمعاني كالكبير والكثير، قال تعالى: ﴿**وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**﴾[٦٨]، وقال: ﴿**ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾[٦٩]»[٧٠]. وصرح السامرائيّ بهذا النوع من النقل، كـ (الحسم) في قوله عليه السلام: (**وَلا تُيَسِّمُوا أَحَدًا عَن حَاجَتِي بِهِ**)[٧١].فالحسم لدى السامرائيّ يعني «القطع ،ومنه الحسام للسيف، ولكنه صرف عن القطع المادي الى القطع المعنوي»[٧٢]. وصرح البحراني بأنّ «المعقول فرع للمحسوس»[٧٣] . وهذا ما اقره علم الدلالة الحديث الذي علل هذا النوع من الانتقال برقيّ الحياة العقلية، «فكلما ارتقى التفكير العقلي جنح الى استخراج الدلالات المجردة

وتوليدها، والاعتماد عليها في الاستعمال»[٧٤]. فالمعنى الحسيّ يمثل المعنى الاصلي للفظ الذي يتفرع منه عن طريق المجاز عدة معان[٧٥]. وهذا النوع من النقل في الدلالة يعكس قابلية الالفاظ على التنوع، ويظهر ما فيها من كوامن معنوية يمكن الإفادة منها[٧٦] فالمجاز والاستعارة والكناية تخرج الألفاظ من الجمود والرتابة، مما يمنحها حيوية وفاعلية[٧٧].

وقد اهتم الشارح البحراني بإبراز العلاقات المجازية، والاستعارات التي ينتقل من خلالها اللفظ من مجال دلالي حسّي إلى آخر معنويّ، ومن ذلك ذكره للعلاقة السببية التي نقلت (القناة)[٧٨] من دلالتها على الرمح الى دلالتها على «القوة والغلبة والدولة التي حصلت لهم مجازا، وهو من باب اطلاق اسم السبب على المسبب ،فان الرمح او الظهر سبب للقوة والشدة»[٧٩]. وكذا نقلت العلاقة السببية الألفاظ: العين[٨٠] واليد[٨١] واللسان[٨٢] من دلالتها على (الجوارح)الى دلالتها على العلم تجوزا بلفظ (العين). والى التعاون بلفظ (اليد). والى الوعظ بلفظ (اللسان)[٨٣]. ومن تلك العلاقات علاقة المسببية، كلفظة (الموت) التي سمّي بها الهم «تجوزا بلفظ الموت في الهم والغم، تسمية للشيء باسم ما يؤول اليه، واطلاقا لاسم المسبب على السبب»[٨٤]. ومنها -أيضا- علاقة المشابهة كما في (الانغماس)، فهو «حقيقة في الدخول في الماء، وما في معناه، الا ان الحرب لما كانت في غمارها واختلاط المتحاربين فيها تشبه الماء المتراكم الجمّ، صحت نسبة الانغماس اليها، كما صحت اليه، فيقال:

انغمس في الحرب وخاض فيها ونحوه»[٨٥] وغير ذلك من العلاقات والأمثلة[٨٦].

المجاز اللغوي في النهج بين الأصلين الحسي والمعنوي

من الملاحظ أن أغلب الأصول الحسية التي ذكرها شّرّاح النهج مأخوذة من حياة الصحراء والبداوة لاسيما (الناقة والجمل) سواء كان الانتقال من هذا المحسوس الى مجال حسي اخر او إلى مجال معنوي، حتى فاقت نسبتها الثمانين بالمئة من الاصول الحسية. وفي ذلك يقول السامرائيّ: «وقد امدّ الحيوان وسائر المخلوقات، العربية بمادة وفيرة استفيدت من علاقة ما، تشبيهاً أو نحو ذلك»[٨٧].

ومن أمثلة هذا الانتقال لدى الشراح ان (الغرار) وهو قلة النوم ماخوذ من قلة لبن الناقة[٨٨]، و(الاناخة) بمعنى الاقامة أصلها من إناخة الإبل على الأرض[٨٩]، و(المثافنة) بمعنى المجالسة اصلها من ثفنة البعير، وهو ما يقع على الارض من اعضائه كالركبتين[٩٠]، و(الدُّلَّح) وهو الثقيل من السحاب أصله من البعير الذي يمشي بالحمل وقد اثقله[٩١]، و(الضروس) بمعنى الحرب في الاستعمال المعاصر أصله من الناقة السيئة الخلق[٩٢]، و(الرياضة) التي انتقلت من قولهم: راض المهر رياضة اي: ذلله[٩٣]. ولفظة (المسافة) بمعنى (البعد)، وأصله من الشم، وكان الدليل اذا كان في فلاة أخذ التراب فشمه ليعلم اعلى قصد هو أم على جور، ثم كثر استعمالهم لهذه الكلمة حتى سموا البعد مسافة[٩٤]، و(المباءة) بمعنى المنزل أصلها «هو الموضع الذي تبوء أي ترجع إليه الإبل، ثم جعل عبارة عن المنزل»[٩٥]. ومن النقل الى المعنويات لفظة (الصعب)، وهو الامر الشاق، والاصل فيه من البعير المستصعبيركبه الانسان فيغرر به[٩٦]، و(البلية)بمعنى المشقة والعذاب، الاصل فيها الناقة التي «تعقل في الجاهلية عند قبر صاحبها فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت ويحفر لها حفرة وتترك فيها الى ان تتفرق اجزاؤها»[٩٧]، و(النجاة) بمعنى طاعة الله المؤدية للجنة، والاصل فيها من الناقة التي ينجى عليها[٩٨] ، و(البَرَكة) بمعنى الثبات والبقاء، اصلها من بروك الابل اذا نامت على الارض، ووجه هذا الدوام على الشيء[٩٩] و(الحدو) بمعنى الباعث والمحرض، والاصل فيه ماخوذ من حدو الابل، وهو سوقها[١٠٠]، و(المحافلة)

بمعنى المفاخرة بالامتلاء، والأصل من الحفل وهو امتلاء ضرع الناقة باللبن[١٠١]، و(الكانفة) بمعنى العاصمة، والاصل فيها من كنفت الابل، أي: جعلت لها كنيفا، وهي الحظيرة من الشجر تستتر فيها[١٠٢]، و(القصيدة) بمعنى الكلمة الممتلئة بالمعاني، والأصل فيها من الناقة القصيدة ،أي كثيرة الشحم واللحم[١٠٣] ، و(الوله) بمعنى ذهاب العقل، وأصله من النوق الوالهة، أي الفاقدة أولادها[١٠٤] ، و(السدى) وهي من الإبل المهملة بلا راع فانتقلت الى إهمال الناس بلا حاكم[١٠٥]، و(انجابت) من قولهم: انجابت الناقة اذا مدت عنقها للحلب فانتقلت إلى معنى الخضوع لنور البصائر[١٠٦]، و(القريحة) لما يستنبط من الآراء، والأصل فيها هو أول ما يستنبط من ماء البئر[١٠٧] ، و(الورطة) بمعنى الهلاك[١٠٨]، والأصل فيها من الارض المطمئنة التي لا طريق فيها[١٠٩]، و(الوعثاء) بمعنى الصعوبة، والأصل فيها من الرمل اللين السهل الذي تغيب فيه الاقدام[١١٠] ، و(الرحيل) بمعنى السفر، والأصل فيها وضع الرحل استعدادا للركوب[١١١] .

أما الانتقال من المجال المعنوي الى المجال الحسي، فورد في امثلة قليلة لدى الشّرّاح، وقد علل المحدثون هذا النوع من الانتقال بإرادة التوضيح الدلالي[١١٢]، اذ يجري فيه تمثيل الصورة الذهنية بمعان حسية بهدف تقريب المعنى الى الاذهان[١١٣]، فيكون أكثر رسوخا في النفس[١١٤].

ومن امثلة الشّرّاح لهذا الانتقال[١١٥] ذكرهم ان اصل (البغي) هو الحسد، ثم سمي به الظالم، وهو الخارج على السلطان او قاطع الطريق؛ لان الحاسد ظالم[١١٦].

وان الأصل في (الجزر) هو «القطع، ومنه سميت الجزور لما ينحر من الابل»[١١٧] . وأنّ لفظة (الجأش) تعني (القلب)، و«الأصل في معناه الاضطراب، سمي جاشا لاضطرابه»[١١٨]، ولفظة (الرنق) بكسر النون تعني (الكدر)، «وأصل ذلك في العيش، ونقل الى المشرب مجازا»[١١٩]، و(الضريح) بمعنى الشق وسط القبر «وأصله من ضرحه

بمعنى دفعه، وسمي بذلك لعلاقة الحال والمحل، فان الميت مدفوع الى هناك»[١٢٠]. و«أصل اليتم: الغفلة،ومنه سمي اليتيم لانه يغفل عنه»[١٢١]. ولم تذكر المعجمات هذا المعنى الأصلي، واكتفت بذكر المعنى العرفي لليتيم وهو من فقد أباه من البشر، ومن فقد أمه من الحيوانات[١٢٢].

على حين قلت الالفاظ التي ذكر الشّرّاح انتقال معناها من المجال المعنوي إلى آخر معنويّ، لتقتصر على بضعة أمثلة، منها لفظة (السفه) التي بين الخوئي أن الأصل فيها منقول من معنى (الخفّة) الى معنى النقص في العقل والقدر، وبه فسر قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ يِملَّي ة إِيبْرَياهيمَ إِيلَّا مَنْ سَ يِفهَ نَفْسَهُ**﴾[١٢٣]، اي: جهل قدره[١٢٤]. ولفظة (الغيّ) التي ذكر الخوئي انتقالها من معنى الجهل من اعتقاد فاسد الى معنى الضلال والانهماك في الباطل، وبه فسر قوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَغَيًّا**﴾[١٢٥]، والغيّ هو (العذاب)[١٢٦]، ووجه النقل تسمية «الشيء بما هو سببه»[١٢٧]، أي: تسمية العذاب بالغيّ، وهو الضلال المسبب للعذاب .

وأغلب النماذج التي أوردها الشرّاح للانتقال بالمعنى من المجال الدلالي المجرد لها اصول حسّية في معجمات اللغة، فلفظة (السفه) التي ذكر الشّرّاح، أصلها المعنوي و هو الخفة، نجد أصلها الحسي من قول العرب: تسفهت الريح، اذا مالت... ويقال تسفهت فلانا عن ماله اذا خدعته كأنّك ملت به عنه[١٢٨]، وقد المح الراونديّ إلى هذا الأصل بقوله: «والسفه: ضد الحلم، وأصله الخفة والحركة، يقال: تسفهت الريح الشجر، اي: مالت به»[١٢٩]. ولفظة (الغي) بمعنى الجهل من اعتقاد فاسد ،أصلها الحسي هو الغياية، وهي الغبرة والظلمة تغشيان، ويقال: «تغايا القوم فوق راس فلان بالسيوف، كأنهم أظلوه بها»، ويقال: «وقع القوم في أغويّة، اي داهية ،وأمر مظلم»[١٣٠].

ولفظة (البغي) أصلها المحسوس من قولهم: بغى الجرح، اذا ترامى الى فساد[١٣١] . ولفظة (الجزر) التي ذكر الشّرّاح انتقالها من القطع، لها في كلام العرب أصل حسيّ هو

الجزرة، وهي «الشاة التي يقوم اليها أهلها فيذبحونها»[١٣٢]، والشيء نفسه في لفظة (الجأش) التي أصّل لها الشّرّاح بمعنى الاضطراب، تذكر لها المعجمات أصلاً حسياً، هو جيشان القدر، أي غليانها واضطرابها[١٣٣]، ولفظة (الضريح) ذكرت المعجمات لها أصلاً حسياً من قولهم: فرس ضروح، وهو النضوح برحله، وقوس ضروح: الشديدة الدفع للسهم[١٣٤].

ويمكن القول إن ما ذكره الشّرّاح من أصول معنوية (مجردة) للألفاظ هو في الحقيقة معان عامة دلّت عليها الألفاظ بغض النظر عن أصولها، حسية كانت ام معنوية؟ وربما يقف تعاقب الاستعمال اللغوي للالفاظ بمعنى معين في كل مرة وراء تعدد القول في الأصول الدلالية للألفاظ، فتجدد معاني الالفاظ «ناتج من المواضعة التي تمثل تشكلا دائما ومستمرا للغة»[١٣٥]، وانتقال الدلالة من مجال الى آخر «يتم عادة في صورة تدريجية، وتظل الدلالتان سائدتين جنبا إلى جنب زمنا ما خلاله، وقد تستعمل الدلالة المحسوسة فلا تثير دهشة أو غرابة، وتستعمل في نفس الوقت الدلالة المجردة فلا يدهش لها احد. وليست إحداهما حينئذ بأحق وأولى بالأصالة من الأخرى، حتى يمكن أن تعد إحدى الدلالتين مما يسمى بالحقيقة ،والأخرى مما يسمى بالمجاز، إذ لا مجاز ولا حقيقة بينهما في مثل هذا الحال»[١٣٦]. فبعد كثرة الاستعمال وشيوع اللفظ بين الناس بالمعنى الجديد، تصبح دلالته على المدلول الجديد حقيقية لا مجازية[١٣٧]، أي ان اللفظة الواحدة تتوالى عليها الحقائق المعنوية مع تعاقب الاستعمال، وهكذا تكثر أصولها الدلالية. ويمكن توضيح ذلك في لفظة (الفجور) التي ذكر الشراح[١٣٨] لها أصلاً معنوياً، وهو الميل عن الصواب ،مستشهدين بقول لبيد[١٣٩]:

إنْ تَتَقَدَّمْ تَغشَ مِنْهَا مُقَدَّمًا غَلِيظًا وإنْ أَخَّرْتَ فَالكِفْلُ فَاجِر

ثم ذكروا انتقال دلالة اللفظة الى العاهر والفاسق. وقد فصل ابن فارس الانتقالات الدلالية المتعاقبة على هذا اللفظ بأثر الاستعمال، اذ بين ان المعنى بدأ بأصل عام هو «التفتح في الشيء، من ذلك الفجر انفجار الظلمة عن الصبح... ثم كثر هذا حتى صار الانبعاث والتفتح في المعاصي فجورا، ثم كثر هذا حتى سمي كل مائل عن الحق فاجر»[١٤٠]، فالأصول

تتعاقب على اللفظة بتعاقب الاستعمال عليها لتصبح حقائق دلالية للفظة، والمعنى الحقيقي هو المعنى الاصلي للفظة. لذلك يكون القول بالمعنى العام للفظة الذي تتفرع منه دلالاتها الحسية والمعنوية هو الحل في حسم القول بالأصول الدلالية للألفاظ.

الاحالات والمراجع

١) علم الدلالة بالمر ٢٤ ومدخل إلى علم اللغة ١٤٥
٢) ينظر: علم الدلالة (بالمر)١٧
٣) ينظر: اللغة لفندريس٢٥٦ وعلم اللغة السعران ٣٠٥ ودلالة الألفاظ ١٥٢ وفصول في فقه اللغة ٢٨٥
٤) شرح النهج للبحراني ١/ ٥٢.
٥) دلالة الألفاظ ١٢٨
٦) المدخل إلى علم اللغة، حجازي ٨٦
٧) علم اللغة العام سوسير٩٠
٨)ينظر: شرح النهج للبحراني ١/ ٥٦ ومنهاج البراعة للخوئي١/ ٢٩
٩)ينظر: التصوير الفني عند الأصوليين ١٠٣ والمجاز في البلاغة ٢٠٧
١٠) ينظر: علم الدلالة (عمر)٢٣٧ ودور الكلمة ١٥٧ ودلالة الألفاظ ١٣٤
١١) ينظر: الخصائص ٢/ ٤٤٢ والصناعتين ١٣ وأسرار البلاغة ٣٢٤
١٢) شرح النهج للبحراني ١/ ٥٦
١٣) ينظر: الاستغناء ٣٩٦ وشرح تنقيح الفصول ٤٤
١٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١/ ٢٧
١٥) ينظر: منهاج البراعة للخوئي١/ ٣١
١٦) ينظر: الخصائص ٢/ ٤٤٧
١٧) دراسات في فقه اللغة ٣٠٦ وينظر: الأصول (حسان)٢٣٢ واللغة (فندريس)٢٢٨ والتطور اللغوي التاريخي ٣٧.
١٨) ينظر: شرح النهج للبحراني ١/ ٥٢.
١٩) ينظر: التعريفات ١٨٠ وكشاف اصطلاحات الفنون ٢١٤.
٢٠) منهاج البراعة للخوئي١/ ٢٨
٢١) نفسه.
٢٢) ينظر:تأويل مشكل القرآن ١٠٣ وأسرار العربية ٣١٠ والبرهان ٢/ ٢٥٥ والتراث النقدي والبلاغة ٨٩
٢٣) الخصائص ٢/ ٤٤٩
٢٤) ينظر: البرهان٢/ ٢٢٢ ومعترك الأقران١/ ٣٤٦ والمجاز في البلاغة العربية١٤٦ ومجاز القرآن (الصغير)٦٥

٢٥) ينظر: البلاغة والتطبيق ٣٢٧
٢٦) نظر: المحصول للرازي١/ ١/ ٤١٥ والمزهر ١/ ٢٩٨ومنهج البحث اللغوي (زوين)١٣٤ والتصور اللغوي ٧٨
٢٧)ينظر: الأحكام للآمدي١/ ٤٨ ونهاية السؤل ٢/ ١٥٢ والمزهر ١/ ٢٩٨
٢٨) ينظر: إرشاد الفحول ١/ ٩٦ والمعتمد ١/ ٣١
٢٩) ينظر: المحصول ١/ ١/ ٣٩٧ والبحث الدلالي عند الشوكاني ٥١
٣٠) ينظر: دراسة المعنى عند الأصوليين ١٠٦
٣١) ينظر: دراسات في القرآن ٣٦ ونحو وعي لغوي ١٢١ واللغة العربية معناها ومبناها٣٢٢
٣٢) ينظر: التعريفات ٤ ودلالة الالفاظ١٦٠ودور الكلمة ١٨١ وعلم الدلالة العربي ٣١٤- ٣١٥ .
٣٣) اللغة (فندريس)٢٥٦.
٣٤)في الدلالة والتطور الدلالي١٣٢وينظر:التفكير اللساني١٨٨ .
٣٥) ينظر: قاموس اللسانيات ٤٤.
٣٦) ينظر: عوامل التطور اللغوي٥٧ وكلام العرب٤١-٤٢ ودلالة الالفاظ ٦١.
٣٧)التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القران٥٦ وينظر: فقه اللغة وخصائص العربية٢٢٠ وعلم الدلالة (عمر)٢٤٧.
٣٨)ينظر:علم البيان، دراسة تاريخية ١١٦-١٢١ والأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ٢١٢ وعلم البيان (عتيق)١١٩ وفقه اللغة وخصائص العربية٥٤٣ والمجاز في البلاغة العربية ٦٣.
٣٩)ينظر: الخصائص٢/ ٤٦٨ والصاحبي٤٥ وأسرار البلاغة٢٢ ودلائل الاعجاز٢٧٧ والمزهر١/ ٣٣٥
٤٠) ينظر: المحصول١/ ١/ ٣٩٧.
٤١)ينظر:المعتمد١/ ١٦ وكشف الظنون٢/ ٢٠٠ والاعلام٥/ ١٦١.
٤٢) شرح النهج للبحراني ١/ ٥٢ وينظر: منهاج البراعة للخوئي١/ ٢٨.
٤٣) التفكير اللساني١٦٣-١٦٤ وينظر: اصول البيان العربي٤٢.
٤٤) ينظر: شرح النهج للبحراني ١/ ٥٣-٥٤ ومنهاج البراعة للخوئي١/ ٣٨-٤١.
٤٥)شرح النهج للبحراني ١/ ٦٥ وينظر: منهاج البراعة للخوئي١/ ٩٠.
٤٦)ينظر:الصناعتين٢٧٤ واسرار البلاغة٥١ والاستغناء٢٩٩ وجواهر البلاغة٢٩٢ ودور الكلمة٨٨ ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة٢٨٥ وفقه اللغة (وافي) .
٤٧) نهج البلاغة الخطبة ٢٧ ص ٦٣
٤٨) شرح النهج للبحراني ٢/ ٣٩.

٤٩) اللغة (فندريس)٢٥٤.
٥٠) منهاج البراعة للخوئي١/ ٤٥.
٥١) ينظر اللغة المعنى والسياق ٣٥
٥٢) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية ٢٠١
٥٣) نهج البلاغة: الخطبة ١١٥، ص:٢١٥
٥٤) مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ٢٣٧.
٥٥) منهاج البراعة للخوئي١٩/ ٣٧٩.
٥٦) ينظر للمزيد: شرح النهج لابن أبي الحديد٢/ ٧٨ ومنهاج البراعة للخوئي١١/ ١٨٥.
٥٧) شرح النهج لابن أبي الحديد١٩/ ١١٩.
٥٨) شرح نهج البلاغة المقتطف ١/ ٢٠٨ وينظر: مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ٢٩٧
٥٩) شرح النهج لابن أبي الحديد١٥/ ٩٠.
٦٠) ينظر: مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ١٢٤
٦١) مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ١٢٦ وينظر: شرح النهج لابن أبي الحديد٢/ ١٩١ و٧/ ٧٦ وشرح النهج للبحراني ٢/ ٤٢١ وشرح نهج البلاغة المقتطف ١/ ١٥٠ ومنهاج البراعة للخوئي٤/ ٧١.
٦٢)ينظر:حدائق الحقائق١/ ٢٠٢ وشرح النهج لابن أبي الحديد١١/ ١٢٥.
٦٣) ينظر: في اللهجات العربية٦٥ ودلالة الالفاظ١٦٥ وفقه اللغة وخصائص العربية٢٢٢ ومن اسرار اللغة١٤١.
٦٤) ينظر: الفلسفة اللغوية ٩٧-٩٨.
٦٥) شرح النهج للبحراني ١/ ١٤٠.
٦٦) نفسه١/ ١٢٦.
٦٧) نفسه ١/ ١٢٤ وينظر:١/ ١٣١ و٣/ ٦٢ و٤٣٣ و٥/ ٣٩١.
٦٨)التوبة ١٢٣
٦٩)لقمان ٢٤
٧٠) منهاج البراعة للخوئي١٨/ ٣٢٥.
٧١) نهج البلاغة الرسالة ٥١ ص ٥٤٢
٧٢) مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ١٢٩ وينظر:٨٣.
٧٣) شرح النهج للبحراني ١/ ٥٧.وينظر: نهاية الإيجاز٥٩.
٧٤) دلالة الالفاظ١٦١.
٧٥) ينظر: في اللهجات العربية١٧١ وكلام العرب٤٢.

٧٦) ينظر: علم الدلالة العربي٣٢٦.
٧٧) ينظر: كلام العرب٢٤٤ ونظرية المعنى ٨٥
٧٨) شرح النهج للبحراني ٢/ ٧٤ وينظر: شرح نهج البلاغة المقتطف ١/ ١٤٥.
٧٩) شرح النهج للبحراني ٣/ ٣٧٥.
٨٠) ينظر: نفسه٥/ ٢١٧.
٨١) ينظر: نفسه ٢/ ٢١٠.
٨٢) ينظر: شرح النهج للبحراني ٢/ ٧٤ و ١/ ١٤٥.
٨٣) ينظر: منهاج البراعة للخوئي١٣/ ٣ ومغنية ٥/ ٤٠٩.
٨٤) شرح النهج للبحراني ٢/ ٣٧.
٨٥) شرح النهج للبحراني ١/ ١٣٨ و١٢٧.
٨٦) ينظر: شرح النهج لابن أبي الحديد١/ ١٩٩ وشرح النهج للبحراني ٣/ ٤٢٩ ومنهاج البراعة للخوئي١٦/ ١٩٦....
٨٧) مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ١١٥.
٨٨) ينظر: شرح النهج لابن أبي الحديد٦/ ٢٦٦.
٨٩) ينظر: بهج الصباغة٦/ ١٥٩.
٩٠) ينظر: نفسه ١/ ٢٦٧.
٩١) ينظر: شرح نهج البلاغة المقتطف ١/ ٢٨٥.
٩٢) ينظر: مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ١٩٢.
٩٣) ينظر: نفسه٦٧.
٩٤)منهاج البراعة للراوندي٣/ ١٠٤ وينظر:بهج الصباغة ٢٦٣.
٩٥)منهاج البراعة للخوئي١٤/ ٢٥٣.
٩٦) ينظر: شرح النهج لابن أبي الحديد١٦/ ١٣٣.
٩٧) معارج نهج البلاغة٢٢.
٩٨) ينظر: شرح النهج لابن أبي الحديد٩/ ٢٣٩ وشرح النهج للبحراني ٣/ ٢٧٢.
٩٩) ينظر: توضيح نهج البلاغة٣/ ١٢٦.
١٠٠)ينظر: شرح النهج لابن أبي الحديد١٧/ ٧٠ وشرح النهج للبحراني ١/ ١٢٤وشرح نهج البلاغة المقتطف ٣/ ٢٥٨
١٠١) ينظر: منهاج البراعة للخوئي١/ ٢٦٧.
١٠٢) ينظر: شرح النهج لابن أبي الحديد٨/ ٢٩٦

١٠٣) ينظر: معارج نهج البلاغة٤٥٩
١٠٤) ينظر: شرح النهج لأبي الفضل ١/ ١١٧.
١٠٥) ينظر: شرح النهج لمحمد عبده ١/ ١٣٦.
١٠٦) ينظر: مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ١١٧.
١٠٧) ينظر: منهاج البراعة للراوندي١/ ٣٨٤ وشرح النهج لابن أبي الحديد٦/ ٤١٤ وشرح نهج البلاغة المقتطف ١/ ١٤٢٢٧٣ وتوضيح نهج البلاغة١/ ٢٣٧.
١٠٨)ينظر: منهاج البراعة للراوندي١/ ٣٤٨ وحدائق الحقائق١/ ٣٩٨ وشرح النهج لابـــن أبي الحديد٦/ ٢٧٦ وبهج الصباغة١٢/ ١٩١ وشرح النهج لأبي الفضل ١/ ١٦٣.
١٠٩) ينظر: الصحاح.
١١٠)ينظر:منهاج البراعة للراوندي١/ ٢٦٢ وحدائق الحقائق١/ ٢٩٤ وشرح النهج للبحراني ٢/ ١٢٢ وشرح نهج البلاغة المقتطف ٢/ ٣٨٣ وشرح النهج لأبي الفضل ١/ ١١٠.
١١١)ينظر: مع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ٧١ و ١٧٤.
١١٢) ينظر: دلالة الالفاظ١٦٠ ودور الكلمة ١٨٦.
١١٣) ينظر: اصول البيان العربي في ضوء القران الكريم ٨٦.
١١٤) ينظر: اساليب البيان في القران٦٥٠.
١١٥) ينظر: معارج نهج البلاغة٢٢٧ومنهاج البراعة للراوندي٢/ ٣٧٢، ٢/ ٢٥٣ وحدائق الحقائق١/ ٢،٥٥٤/ ٣٥٥ وشرح النهج لابن أبي الحديد٧/ ٢٢ وشرح النهج للبحراني ٤/ ٥٣ و٥/ ٢٧١ ومنهاج البراعة للخوئي٣/ ٢٤٩، ٢٠/ ٣٣٦ وبهج الصباغة٨/ ٢٧٤
١١٦) ينظر: ينظر: المقاييس ١٤٢ والمفردات ١٣٦
١١٧) شرح النهج للبحراني ٢/ ٤٠٥.
١١٨) بهج الصباغة ١٣/ ٥٥٧.
١١٩) شرح النهج لأبي الفضل ١/ ١٥٢.
١٢٠)توضيح نهج البلاغة١/ ٣١٦ وينظر: شرح النهج لمحمد عبده١/ ١٦٦ ومع نهج البلاغة / دراسة ومعجم ٢٣٩.
١٢١) بهج الصباغة ١١/ ٧٧.
١٢٢) ينظر: المقاييس١١٠٩ والمفردات٨٨٩
١٢٣) البقرة ١٣٠ وينظر: الكشاف ١/ ٣٢١.
١٢٤) ينظر: منهاج البراعة للخوئي٣/ ٢١١.
١٢٥) مريم ٥٩

١٢٦) ينظر: الكشاف ٢/ ٥١٤ -٥١٥.
١٢٧) منهاج البراعة للخوئي١٩/ ٣٨١.
١٢٨) المقاييس ٤٨٢
١٢٩) منهاج البراعة للراوندي٢/ ٢٦٧.
١٣٠) المقاييس ٨٠٦.
١٣١) ينظر: المقاييس ١٤٢.
١٣٢) نفسه٢١٥.
١٣٣) نفسه٢٣٢.
١٣٤) ينظر: نفسه٦١٢.
١٣٥) قاموس اللسانيات ٤٤.
١٣٦) فقه اللغة وخصائص العربية٢٢١.
١٣٧)ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية٢٢١ ودلالة الالفاظ١٣٠
١٣٨)ينظر: شرح النهج لابن أبي الحديد١١/ ٦٧ وبهج الصباغة ١/ ٤١١.
١٣٩) ديوانه ٢/ ٥
١٤٠) المقاييس٨٣٦.

التوازي في نهج البلاغة
دراسة في الدلالة التركيبية

م.د. فاطمة كريم رسن

جامعة بغداد

كلية التربية بن رشد

قسم اللغة العربية

توطئة

يعدُّ التوازي بديلاً لسانيّاً حلَّ محلَّ المفاهيم التي تختزل أشكال التناظر البلاغيّة كلّها، و: «هو عنصر قد يحتلّ المنزلة الأولى بالنسبة للفنّ اللفظيّ»[١]. ويمثل مجموعة بناء في (وحدة الوزن) بغضّ النظر عن اختلاف دلالة كلّ بنية، و: «هو من أشكال النظام النحويّ الذي يتمثل في تقسيم الفقرات بشكل متماثل في الطول، والنغمة ،والتكوين النحويّ، بحيث تبرز عناصر متماثلة في مواقع متقابلة في الخطاب»[٢].

فمبدأ التوازي يقوم على المجاورة، والتماثل (الانسجام الصوتيّ) بين بنيتين فأكثر؛ ولا سيّما في النثر، أمّا في الشعر؛ فقاعدته الصوتيّة في تماثل أبياته، أو أشطار الأبيات، ووحدة الوزن العروضيّ. فـ: «كلّما كان التوازي عميقاً متصلاً بالبنية الدلاليّة كان أحفل بالشعريّة. وأكثر ارتباطاً بالتشاكل المكوّن للنسيج الشعريّ في مستوياته العديدة»[٣].

وقد لا تتساوى البنى المتجاورة في الطول، والشكل، والنهايات، وقد لا تحقق انسجاماً في التركيب النحويّ، أو الصرفيّ، أو البلاغيّ، فهو تأليف ثنائيّ يقوم على أساس التماثل الذي لا يعني التطابق[٤]، ويقوم الإيقاع المتناوب في هذه البنى مهما كان نوع تركيبها، وشرطه تجاوز البنى على الرغم من التغيّر في الأشكال اللفظيّة الدالّة، أو الضمائر، أو الأسماء، والأفعال، أو القواعد النحويّة، والأساليب البلاغيّة.وإنّ هذا الإيقاع المتناوب يثير في السجع انسجاماً صوتيّاً، ويثري دلالة كلّ بنية ،فضلاً عن تأثيره في المتلقي؛ نفسيّاً، وجماليّاً، ويطلق عليه البلاغيّون العرب (التشطير)[٥]، وحين نتفحّص معناه في معجمات اللغة نجده يعني: المواجهة، والمقابلة[٦]. أمّا في النقد العربيّ؛ فقد ظهر هذا الاصطلاح عند العلويّ في كلامه عن السجع، قال: «فإن اتفقت الأعجاز في الفواصل مع اتفاق الوزن سُمّي (المتوازي)»[٧]، واعتمد الأوائل على النصّ الكريم؛ قال تعالى: ﴿ **فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ**﴾[٨].

لذلك؛ فالتوازي يؤدّي – في النثر – الأثر نفسه الذي تؤدّيه القافية في الشعر؛ نظراً لامتلاكهما الوظيفة الجماليّة نفسها، الناتجة عن وجود مبدأين متلازمين؛

هما: مبدأ: (التجانس الصوتيّ)، أي: اتفاق الفواصل في الحرف، ومبدأ: (التجانس الخطّيّ)، أي: اتفاق الفواصل في الوزن.

ويعدّ التقابل توازياً إن كانت هناك بنية ما، أو أكثر تناظر بنية، أو بنى مثلها (مغايرة، أو نقيضة بالمعنى).

و: «من التوازي ما يأخذ معناه من داخل هذه التناقضات التي يثيرها، فيقيم من وسط التناقض والتداعي حركة إيقاع خاصّة»[٩].

وجملة القول في التوازي أنّه تكافؤ صوتيّ تكراريّ: (ترجيع)، (تماثل) ،(انسجام)، وهذه كلّها تدلّ على الإيقاع الثابت، أو المتغيّر في وحدة الوزن، وبعد؛ فهو عامل أساسي في خلق الانسجام[١٠]. ومدار الأمر فيه ليس على القيمة الصوتيّة ،إنّما التوازي هو نتاج دلاليّ مستمرّ، تحدثه متغيّرات البنى نحويّاً، وبلاغيّاً مرتبطاً بوحدة الوزن، ويؤدّي إلى سعة في تنوّع الوصف، والاحتجاج في الموضوع الواحد ،فالتوازي بناء إيقاعيّ يقوم على البناء الأسلوبيّ في الكلام.

وعلى هذا؛ فإنّ القانون العامّ، والأساس الذي يقوم عليه التوازي؛ إنّه علاقة تماثل دلاليّ بين طرفين تنبني على خصيصتين متلازمتين؛ هما: التشابه، والتضادّ، ما دام كلّ حرف يحتفظ بما يميزه عن الطرف الآخر.

قال (لوتمان): «التوازي مركب ثنائيّ التكوين، أحد طرفيه لا يعرف إلا من خلال الآخر، وهذا الآخر يرتبط مع الأوّل بعلامة أقرب إلى التشابه، بمعنى أنّهما ليست علامة تطابق كامل، ولا مباين مطلق، ومن ثمّ فإنّ هذا الطرف الآخر يحظى من الملامح العامّة بما يميزه الإدراك من الطرف الأول، ولأنّهما – في نهاية الأمر – طرفا معادلة، وليسا متطابقين تماماً؛ فإننا نعود ونكافئ بينهما على نحو ما، ونحاكم أوّلهما بمنطق خصائص وسلوك ثانيهما»[١١]. ومثال ذلك ما جاء في قول الإمام عليه السلام، وفيه توازٍ تامّ:

(واعلموا – عباد الله – أنَّ المُتَّ يقينَ
ذَهَبُوا بعَاجل الدُّنيَا وآجل الآخرة // تشابه وتضادّ
فَشَاركوا أَهْلَ الدُّنيا في دُنْيَاهمْ // تشابه وتضادّ
وَلْم يُشَاركْهُمْ أهل الدُّنيا في آخرتهمْ
سَكنوا الدُّنيا بأَفْضَلِ ما سُكنَتْ // تشابه
وأَكَلُوهَا بأَفْضَل مَا أُكلَتْ
فَحظُوا من الدُّنيا بمَا حَظيَ به المُتْرَفُونَ // تشابه وتضادّ
وأَخَذُوا منْهَا مَا أَخَذَهُ الجَبَابِرَةَ المُتَكَبِّرُونَ)[١٢].

ويدلّ التَوازي هنا على علاقة التشابه، والتضادّ في حياة المتقين، وعلاقتهم بالآخرة، وسلوكهم مع غيرهم في الدنيا، وبهذا يحقق التوازي قيمة استدلاليّة منطقيّة في بيان واقع حال في نظر الإمام عليه السلام. وتوازٍ خاصّ، وهو ما تتحقق فيه سلسلة من التضادّ في الصفات الإلهيّة: قال الإمام في وصيّته:

(واعلَمْ أنَّ مَالكَ الموَت // هُوَ مَالكِ الحَيَاةِ
وأَنَّ الخَالقَ // هُوَ المُميتُ
وأَنَّ المُفْنيَ // هو المُعيدُ
وأَنّ المبتليَ // هُوَ المُعَافِي)[١٣].

فمالك الموت // الحياة
الخالق // المميت
المفني // المعيد
المبتلي // المعافي

كلّها ترتدّ على وجه: (التضادّ) إلى الله تعالى، والتوازي هنا يؤكّد هذه التضادّات باستعمال الجمل الاسميّة المؤكّدة. ذلك أنّ: (هو) ضمير ارتكاز، وما بعده يأتي خبراً، وهو أبلغ صيغ التوكيد في العربيّة.

وانبنى التوازي في بنيات النصّ الخطابيّ على مجموعة أضداد تخبر بالصفات المتلازمة،

والمتماثلة دلاليّاً في الذات الإلهيّة، وتخرج إلى توكيد القدرة الإلهيّة على الإحاطة بمصائر الخلق جميعاً.

والنوع الآخر من التوازي الدلاليّ في (نهج البلاغة) هو (التوازي الشرطيّ) الذي يكون مبنيّاً على مجموعة قيم معيّنة، ترتدّ كلّها إلى موقع ثابت. ومثاله ما جاء في قوله عليه السلام:

(يا بُنيَّ! اجعل نفسَك ميزاناً في ما بينَكَ // وبين غيرك
فأحببْ لغيرك ما تُحِبُّ لنفِسك،
واكره له ما تكره لها،
ولا تَظْلِمْ كما لا تُحِبُّ أنْ تُظْلَمَ،
وأحسنْ كما تُحِبُّ أنَّ يُحسَنَ إليكَ،
واستقبحْ مِنْ نفسك ما تَسْتَقبحُه مِنْ غَيرك،
وارضَ من النَّاس ممّا تَرضَاهُ لهم مِنْ نَفْسِك ،
ولا تقُلْ ما لا تعلمُ وإنْ قلَّ ما تَعْلمُ،
ولا تقُلْ ما لا تُحِبُّ أنْ يُقالَ لك)[١٤].

فهذه القيم ترتدّ كلّها إلى موقع ثابت؛ هو النفس في مطلع قوله: «اجعل نفسك ميزاناً».

ويرد تواز آخر ينبني على المفاضلة بين أشياء متناقضة في قوله عليه السلام:

(واعلم أنَّ أمامَك عَقَبَةً كؤوداً،
المُخفُّ فيها أحسنُ حالاً من المُثقِل،
والمُبطئُ عليها أقبحُ حالاً من المُسرِع،
وأنَّ مَهْبطَكَ بها لا محالة إمَّا على جَنَّةٍ، أو على نَارٍ،
فارتَدْ لنفسكَ قبلَ نُزولِكَ ،
ووِّطئ المنَزل قبلَ حُلُولِك،
فليسَ بعدَ الموت مستعتبٌ،
ولا إلى الدُّنْيا مُنصَرَفٌ)[١٥].

يقوم التوازي هنا على إيجاد معادلات تنتهي إلى تفضيل عالم الجنّة على النار ،وذلك

في موازاة متناقضة هي الحياة الدنيا // الآخرة وما بينهما(الموت)، وبذلك حقق التوازي ضرباً من التذكير على سبيل الوعظ بمصير الإنسان.

وتأتي بنى الاشتراط السببيّ في متون الخطاب النصّ في نهج البلاغة، وهو كلّ بنية مشروطة بقيام البنية الثانية، وبالعكس، وذلك في قوله عليه السلام:

(وأعظم ما افترضَ سُبحانَهُ مِنْ تِلكَ الحقوق
حقُّ الوالي على الرَّعِيَّة
وحقُّ الرَّعيَّة على الوالي،
فريضةٌ فَرَضَهَا اللّهُ سبحانَهُ لِكُلٍّ على كُلٍّ،
فَجَعَلَهَا نظامًا لأُلفَتِهِمْ //
وعزّاً لدينهمْ //
فليست تصلُحُ الرَّعيَّةُ إلا بصلاح الوُلاةِ،
ولا تصْلُحُ الوُلاةُ إلا باستقامة الرَّعيَّة
فإذا أدَّتِ الرعيَّةُ إلى الوالي حَقَّهُ،
وأَدَّى الوالي إليها حَقَّهَا
عزَّ الحَقُّ بينهُمْ
وقامَتْ مناهج الدِّين،
واعتَدَلتْ معالمُ العَدْل،
وَجَرَتْ على أذلالها السُّنَنُ،
فَصَلحَ بذلك الزَّمانُ،
وَطمعَ في بقاء الدُّولة،
ويئسَتْ مطامعُ الأعدَاء
وإذا غَلبَت الرَّعيَّةُ واليها // وأجْحَفَ الوالي برعيَّتِهِ
اختلفَتْ هنالك الكلمةُ
وكثر الإدغالُ في الدين

وتركت محاجُّ السُّنن،
فعُملَ بالهوى // وعُطِّلت الأحْكَام،
وكثرَتْ علَلُ النُّفوسِ،
فلا يُستوحَشُ بعظيمِ حقٍّ عُطّلَ،
ولا لعظيم باطلٍ فُعِلَ)[١٦].

ويأتي الاستدلال بالوصف على أهل النفاق على شكل سلسلة بنى متوازية في إطار الوصف المتصل، الذي يقوم على الاستيفاء؛ استيفاء الحالات. ومثله قوله عليه السلام:

(وأحذِّرُكم أهلَ النِّفاق فإنَّهم الضَّالُّونَ // المُضلُّونَ،
والزَّالُّونَ // المُزِلُّون
يَتلوَّنونَ ألواناً //
ويفتنُّون افتِتاناً //
ويعيدُونكم بكُلِّ عمَادٍ //
ويرصُدُونكُمُ بكُلِّ مِرصادٍ //
قلوبُهُمْ دَويَّةٌ //
وصِفاحُهُمْ نقيَّةٌ،
يمشونَ الخفَاءَ //
ويدبُّون الضّراءَ //
وصفُهُمْ دَواءٌ //
وقولُهُمْ شِفاءٌ //
وفِعلُهُم الدَّاءُ العَيَاءُ،
حسَدَةُ الرَّخاءِ //
ومؤكِّدُو البلاءِ //
ومقنطُو الرَّجاءِ....)[١٧].

وكذلك يرد التوازي الوصفيّ في قوله عليه السلام:

(وإنَّما الدُّنْيا منتهى بصر الأعمَى،
لا يبصُر ممَّا وراءَها شيئاً،
والبَصيرُ ينفُذُها بصُرهُ ويعلَمُ أنَّ الدَّارَ وراءَها،
فالبصير منها شاخِصٌ //
والأعمَى إليها شاخِصٌ
والبصر منها متزوِّدٌ //
والأعمى لها متزوِّدٌ)[١٨].

أمّا التوازي الدلاليّ الآخر؛ فهو توازٍ يمكن أن نطلق عليه (المعادلة)؛ فهو يحقق نوعاً من المعادلة الصوتيّة التي تقوم على أساس الموازنة بين الألفاظ صوتيّاً مع اختلاف الدلالة، ويكون ذلك بإعادة اللفظ بنوع الصور في القول بمادّتين مختلفتي البناء مرتين فصاعداً، وهو مايطلق عليه بلاغيّاً (الموازنة)؛ أي: توازن الوحدات اللغويّة التي ترد باطراد داخل البنية الواحدة، وتتكرّر بإيقاع متوازن مع وحدات لغويّة أُخر في بنية متجاورة، أو سلسلة من البنى، وقد جاء مثال ذلك في القرآن الكريم؛ في قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجبالَ فَقُلْ يِنسفُهَا رَبِّي نَسْفاً
فَيَذَرُهَا قَاعاً
صَفْصَفاً
لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً
وَلَا أَمْتاً﴾[١٩].

وتأتي وظيفة توازي المعادلة في الخطاب القرآنيّ وظيفة احتجاجيّة توقع الرهبة في قلب السامع أثر ذلك التردّد الإيقاعيّ الخاصّ به. وجاء في نصوص «نهج البلاغة »مثل ذلك في قوله عليه السلام:

(اللَّهُمَّ دَاحيَ الْمُدَحْـوَّاتِ، وَدَاعـمَ الْمُسْـمُوكَات، وَجَابِلَ الْقـُلُوب عَلَى فطْرَتِهَا: شَقيِّهَا وَسَعِيدِهَا.

اجْعَلْ شَرائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّد عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ،
الْخَاتم لمَا سَبَقَ،
وَالْفَاتِح لمَا انْغَلَقَ،
وَالْمُعْلِن الْحَقَّ بِالْحَقِّ،
وَالدّافع جَيْشَات الأباطيل،
وَالدَّامغ صَوْلاَت الأضَالِيلِ،
كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ،
قَائماً بِأَمْرِكَ،....،
وَاعياً لِوَحْيِكَ،
حَافظاً لعَهْدِكَ،
مَاضياً عَلَى نَفَاذ أَمْرِكَ؛ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابس، وَأَضَاءَ الطّريقَ للْخَابِطِ)[٢٠].

تأتي بنية توازي (المعادلة) في سياق النصّ الخطابيّ بصيغة (اسم الفاعل) التي تكرّر تردّدها باختلاف مدلولاتها؛ إذ استوقف تلك المدلولات الوصف النبويّ الشريف للرسول محمّد ﷺ، وقد جاءت البنية الصرفيّة (اسم الفاعل) على مستويين دلاليّين قطعت بينهما البنية التركيبيّة صرفيّاً (كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ)، فكان المستوى الدلاليّ الأوّل بأسماء الفاعلين (الخاتم، الفاتح، المعلن، الدافع، الدامغ) التي تساوق فيها الإيقاع تردّداً، باختلاف مدلول وحداتها، وهي تمثل نتاج الحركة الفعليّة للرسول ﷺ في المجتمع، أمّا المستوى الدلاليّ الآخر؛ فقد خرجت فيه أسماء الفاعلين إلى استيفاء رصد وصف الرسول ﷺ بالصفات (قائماً، واعياً، حافظاً، ماضياً) الثابتة فيه، وهي بنيات احتجاجيّة في تأدية رسالته ﷺ وبلوغ أثرها في المجتمع، ذلك البلوغ الذي حقق نتيجة الاستدلال في (حتى أورى قبس القابس ،وأضاء الطريق للخابط) .

وفي نصّ آخر قال عليه السلام:

(الْحَمْدُ لله الَّذي شَرع الإسْلاَمَ فَسَهَّلَ شَرائعَهُ لِمنْ وَرَدَهُ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لمنْ عَلقَهُ،

وَسِلْماً لمنْ دَخَلَهُ،

وَبُرْهَاناً لمنْ تَكَلَّمَ بِهِ،

وَشاهداً لمنْ خَاصَمَ بِهِ،

وَنُوراً لمنَ اسْتَضَاءَ بِهِ،

وَفَهْماً لمنْ عَقَلَ،

وَلُبّاً لمَنْ تَدَبَّرَ،

وَآيَةً لمنْ تَوَسَّمَ،

وَتَبْصرَةً لمنْ عَزَمَ،

وَ عبْرَةً لمنَ اتَّعَظَ،

وَنَجَاةً لمنْ صَدَّقَ،

وَثِقَةً لمنْ تَوَكَّلَ،

وَرَاحَةً لمنْ فَوَّضَ،

وَجُنَّةً لمنْ صَبرَ.

فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهجِ وَاضِحُ الْوَلاَئج)[٢١].

يأتي توازي المعادلة في النصّ الخطابيّ بصيغة (المصدر) الدالّة على ثبات الصفة فيه، فجاءت المصادر الأولى في النصّ (أمناً، سلماً، برهاناً) ممثلة بنى تفسيريّة لمن يتخذ الإسلام ديناً، وهي من مقدّمات موضوع الاستدلال (بساطة شرائع الإسلام لوارديه) أدّت بإيقاعها الصوتيّ الترددي أثراً يوقع في النفس الرغبةَ في ورود الإسلام والدخول فيه.

وجاءت صيغة اسم الفاعل (شاهداً) محدثة قطعاً صوتيّاً بوصفها بنية احتجاجيّة في النصّ؛ إذ اتفقت هذه الصيغة مع دلالة التركيب (لمن خاصم به)، فالخصومة تحتاج إلى شهادة الآخر، ثمّ إنّها بنية نقلت صيغة (المصدر) من وظيفته التفسيريّة إلى وظيفة

احتجاجيّة في المستوى الآخر في البنى المتوازية من النصّ في الصيغ (نوراً، فهْماً، لُبّاً، آية، تبصرة، عبرة، نجاة، ثقه، راحة، جنّة) لنبرهن دلالةً وإيقاعاً نتيجة موضوع الاستدلال (فهو أبلج المناهج، وأوضح الولائج).

وجملة الأمر؛ فإنَّ ما تحققه هذه الوحدات اللغويّة المتوازية بطريق المعادلة احتجاجاً واستقصاءً استيفاءُ وصف الحالات؛ فضلاً عن تساوق الإيقاع المردّد على كلّ وحدة منها؛ مؤتلفاً بغيرها صوتيّاً مع اختلاف الدلالة، وتغاير الصورة في كلّ وحدة منها .

الهوامش

١) قضايا الشعريّة: رومان ياكبسون، تر. محمّد الولي مبارك حنوز، ط١،دار توبقال للنشر ، المغرب، ١٩٨٨م: ١٠٣.

٢) بلاغة الخطاب وعلم النصّ، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، يناير ١٩٧٨م: ١٩٨

٣) المصدر نفسه:١٩٩.

٤) ينظر: قضايا الشعرية::١٠٣.

٥) البديع في البديع في نقد الشعر: أسامة بن منقذ(٥٨٤هـ)،تح عبد آ. علي مهنا، بيروت ،١٩٨٧م: ٢١٦.

٦) ينظر: لسان العرب: مادّة: (و ز ن).

٧) الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن عليّ بن إبراهيم العلوي(٧٤٩هـ)، تح محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م: ٤٠٧.

٨) سورة الغاشية: الآيتان ١٣ و ١٤.

٩) ينظر: البنى الإيقاعيّة في مجموعة محمود درويش (حصار لمدائح البحر): بسام قطوس، مجلة أبحاث اليرموك، م٩، ع١، ١٩٩١م: ٦١.

١٠) ينظر: قضايا الشعريّة: ١٠٦ ـ ١٠٧.

١١) تحليل النصّ الشعريّ مهاد نقدي:تر محمّد أحمد فتوح، النادي الثقافي الأدبيّ، جدة،١٩٩٩م: ١٧٨.

١٢) نهج البلاغة ما اختاره الشريف الرضي(٤٠٦هـ) من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، شرح الشيخ محمد عبده، خرّج مصادره الشيخ حسين الآملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان ط ١، ١٤١٣هـ١٩٩٣م: ك ٢٧ / ٥١٦.

١٣) نهج البلاغة: ك ٣١ / ٥٣١.

١٤) نهج البلاغة: ك ٣١ / ٥٣٣.

١٥) المصدر نفسه: ك ٣١ / ٥٣٤.

١٦) نهج البلاغة: خ ٢١٤ / ٤٥٠ ـ ٤٥١.

١٧) نهج البلاغة: خ ١٩٢ / ٤١٨ ـ ٤١٩.

١٨) المصدر نفسه: خ ١٣٣ / ٢٨١.

١٩) سورة طه: الآية:١٠٥ ـ ١٠٧.

٢٠) نهج البلاغة: خ٧١ / ١٤٦ - ١٤٧.

٢١) نهج البلاغة: خ ١٠٥/ ٢٣٠ - ٢٣١.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١)البديع في البديع في نقد الشعر: أسامة بن منقذ(٥٨٤هـ)،تح عبد آ. علي مهنا ،بيروت ،١٩٨٧م.

٢) بلاغة الخطاب وعلم النصّ، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، يناير ١٩٧٨م.

٣) البنى الإيقاعيّة في مجموعة محمود درويش (حصار لمدائح البحر): بسام قطوس، مجلة أبحاث اليرموك، م٩، ع١، ١٩٩١م.

٤) تحليل النصّ الشعريّ مهاد نقدي:ترمحمّد أحمد فتوح، النادي الثقافي الأدبيّ، جدة ،١٩٩٩م.

٥) الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن عليّ بن إبراهيم العلوي(٧٤٩هـ)، تح محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٦) قضايا الشعريّة: رومان ياكبسون ،تر. محمّد الولي مبارك حنوز، ط١،دار توبقال للنشر، المغرب ،١٩٨٨م.

٧) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور(٧١١هـ)، دار صادر، بيروت ،لبنان، ط٤، ٢٠٠٥م .

٨) نهج البلاغة ما اختاره الشريف الرضي(٤٠٦هـ) من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، شرح الشيخ محمد عبده، خرّج مصادره الشيخ حسين الآملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان ط ١، ١٤١٣هـ١٩٩٣م.

القرآنيّة
في نهج البلاغة

م.م. علي ذياب محي العبادي

جامعة كربلاء

كلية العلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

التمهيد

في تراثنا القديم كان الاقتباس مصطلحا خاصا بالأخذ من النص القرآني ،يقول الحموي «الاقتباس هو أن يضمن كلامه كلمة من آية، أو آية من آيات كتاب الله خاصة»[١].

والذين ذهبوا إلى هذا التخصيص تركوا التضمين للحديث النبوي والشعر العربي والأنواع الأخرى من الكلام الفصيح والمأثور. أما الذين جعلوا الاقتباس خاصا بالشعر وبقية النصوص الأدبية فأشركوا الحديث النبوي الشريف والقرآن الكريم في مصطلح آخر هو التضمين، يقول القزويني: «التضمين هو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه»[٢].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل حاول بعض النقاد إدخال الأخذ من القرآن في مفهوم السرقة الأدبية من مثل ابن كناسة (ت ٢٠٧هـ) الذي كتب كتابا لم يصل إلينا بعنوان (سرقات الكميت من القرآن) [٣].

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه التوجهات بل أردت الإشارة إلى أن النص القرآني أثر في ذهنية المؤلفين كتابا وأدباء لينتج المفاهيم والمقولات إبداعية ونقدية.

ولم يقف الأمر عند القدماء بل استمر الأمر في كتابات المحدثين فحاولوا أن يرصدوا تأثير القرآن في النصوص الحديثة فأنتجوا عبارات من مثل (أثر القرآن في كذا)، وحاول بعضهم سحب هذه العبارة إلى منطقة نقدية جديدة تتعلق بنظرية التناص التي يراد بها (العملية التي بموجبها فكك نص وانبناؤه- فكل نص هو تناص - والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى، إذ نتعرف فيها نصوص الثقافة السالفة والحالية: فكل نص ليس إلا نسيجا من استشهادات سابقة) [٤]، فعبروا عن ذلك التأثير بمصطلح (التناص القرآني).

وقد طرح الدكتور مشتاق عباس معن مصطلحا بديلا هو (القرآنية) ليكون مدعاة لتعميق فكرة استمرار تأثير ذلك النص وموازاة لمعطيات ذلك الاستمرار الأدبي بمواكبة

مفاهيمية ونظرية تنسجم ومستجدات التفكير النقدي وتطور رؤاه[٥].

فالتناص يحمل حمولة فلسفية تجعل من النص الواحد تبادلي التأثير مما يوهم باحتمالية تأثر القرآن بسواه، وهو ما لا ينسجم والعقيدة الإسلامية بوصفه نصا إلهيا لا يمكن إنزاله إلى تأثيرات بشرية لأن مبانيه الانتاجية متعالية.

فضلا عن مفارقة المصطلحات القديمة لأن وظيفة النظرية الحديثة تختلف بأبعادها الفلسفية والجمالية عن الأبعاد القديمة، ففي التراث كانت النظرة معيارية أما في الحداثة وما بعدها فالنظرة تستتبع مفاهيم أخرى أهمها قصدية الانتاج.

زيادة على ذلك فإنّ المصطلحية العربية تحبّذ اختزال المصطلح في لفظ واحد، إلا إذ تعذر ذلك الاختزال[٦]. وقد عرّفت القرآنية بأنها (آلية من الآليات التي يتوسل بها المبدع في تشكيل نصوصه الإبداعية من جهتي الرؤى والنساق، بنية وإيقاعاً، بحسب سياق القرآن الكريم)[٧].

وتأتي القرآنية على ثلاثة أنماط هي:

•**القرآنية المباشرة غير المحورة**: وهي التي يأتي فيها النص القرآني مساوقاً لأصله ولا تمارس عليه تعديلات وإن جاءت فهي طفيفة لا تؤثر في صورته الأصلية.

•**القرآنية المباشرة المحورة**: وتأتي استضافة النص القرآني بعد تعديل في بنيته الأصلية بالحذف والذكر أو التقديم والتاخير أو غيرها من صور التعديل ،ويكون التفات المتلقي إلى تلك المرجعية بنحو أكثر تأملا من الالتفات للاستضافة السابقة.

•**القرآنية غير المباشرة المحورة**: وفيها تغيب المحيلات الظاهرية للنص المرجع بحيث تحتاج إلى تأمل عميق من المتلقي كما يصل إلى المرجعية النصية التي أثرت في بناء النص الجديد؛ لأن المبدع الجديد عدّل في بنية النص الأصلي المستضاف حتى غابت ملامحه الرئيسة التي تسهّل من عملية الإحالة[٨].

وحين يتوافر المؤلف على قدرة الإنتاج يبقى الإنتاج مرتكزاً على مخزون المؤلف الثقافي والمعرفي، وكلما كان ذلك المخزون ثرّاً، كان النصّ عميقاً وغني الدلالة ،وكلما كان المخزون ضحلاً، كان النصّ سطحياً، ويقدّم هذا الفرض نتيجة مفادها: أن النصّ لا يولد من فراغ بل لا بدّ له من مغذّيات نصية سابقة تعرف بالمرجعيات ،فمن دونها لا يمكن للمؤلف أن ينتج شيئاً.

وتستفيد نظرية الثقافة من هذا الفرض الذي أفادت منه نظرية التناص لترصّد المهيمنات النصّية التي يحققها تكرار المؤثرات النصيّة السابقة ليكون تكرارها سمة راسخة تمارس سلطة على الصياغة والدلالة والألفاظ.

وتبعاً لهذا التصوّر الذي قدّمته نظرية التناص والنظرية الثقافية الساندة يمكننا استبطان نصوص نهج البلاغة لمتابعة مرجعية النصّ القرآني الذي شكّل سلطة مهيمنة على النصوص التي أنتجت بعد نزوله فكان ذلك مدعاة لتأسيس جملة من المفاهيم والمصطلحات التي أشرنا إليها في مستهل هذا البحث في التراث والنظرية النقدية العربية المعاصرة.

وسنقف هنا عند المصطلح المعاصر الذي يناقش تاثير النص القرآني في النصوص الأخرى وفقاً لنظريتي التناص والثقافة،أعني به (القرآنية) وفقاً لأنماطها الثلاثة:

الفصل الأول

النمط الأول / القرآنية المباشرة غير المحورة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **(فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَموَات، جَعَلَ سُفْلاَهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفا، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَد يَدْعَمُهَا، وَلا دِسَار يَنْظِمُها. ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزينَةِ الكَوَاكِبِ، وَضِياءِ الثَّوَاقِبِ، وَأَجْرَى فِيها سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً ، في فَلَك دَائِر، وَسَقْف سَائِر، وَرَقِيم مَائِر.ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّموات العُلاَ، فَمَلاَهُنَّ أَطْواراً مِنْ مَلائِكَتِه: مِنْهُمْ سُجُودٌ لاَيَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لاَ ينصتونَ، وَصَافُّونَ لاَ يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لاَ يَسْأَمُونَ، لاَ يَغْشَاهُمْ نَوْمُ العُيُونِ، وَلاَ سَهْوُ العُقُولِ، وَلاَ فَتْرَةُ الأَبْدَانِ، ولاَ غَفْلَةُ النِّسْيَانِ. وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِه، وألسِنَةٌ إِلَى رُسُلِه، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِه وَأَمْرِه. وَمِنْهُمُ الحَفَظَةُ لِعِبَادِه، وَالسَّدَنَةُ لاَبْوَابِ جِنَانِه. وَمِنْهُمُ الثَّبَتَةُ فِي الأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالمَارِقَةُ مِنَ السَّماءِ العُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، والخَارِجَةُ مِنَ الأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، المُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ العَرْشِ أَكْنَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصارُهُمْ)**[٩].

يزخر هذا المقطع بالقرآنيات المباشرة غير المحورة،إذ وضع الإمام عليه السلام مجموعة من الآيات القرآنية مع تعديل يسير أو من دون تعديل في نصّه لتحيل المتلقي إلى حقائق ربانية في تكوين الكون وتنظيمه وبثّ الحياة فيه.

فسوّى منه سبع سموات إحالة إلى قوله تعالى ﴿**فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ**﴾ وقوله عليه السلام: **(وعلياهن سقفاً محفوظاً. وسَمكاً مَرفوعاً. بِغير عَمَدٍ يدعمها)** إحالة إلى كثير من الآيات التي تتحدث عن خلقة السموات وترتيبها بلا عمد كقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً**﴾[١٠].

وكذلك بقية جمل قول الإمام عليه السلام في النص السابق فإنها تحيل إلى آيات بعينها من مثل:

•بزينة الكواكب = ﴿**إنّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بزينَةٍ الْكَواكِب**﴾[١١].

•قمرا منيرا = ﴿**تَبارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّماء بُرُوجاً وَجَعَلَ فيها سراجاً وَقَمَراً مُنيراً**﴾[١٢].

• فتق... السموات = ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماوات وَالأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا منَ الْماء كُلَّ شَيْء حَيٍّ أَفَلا يُؤْمنُونَ**﴾[١٣].

•الملائكة الراكعون والساجدون = ﴿**التَّائبُونَ الْعابدُونَ الْحامدُونَ السَّائحُونَ الرَّاكعُونَ السَّاجدُونَ الآمرُونَ بالْمَعْرُوف وَالنَّاهُونَ عَن الْمُنْكَر وَالْحافظُونَ لحُدُود الله وَبَشِّر الْمُؤْمنينَ**﴾[١٤].

ومن النصوص التي وردت في نهج البلاغة وهي مبنية على المرجعية القرآنية بنحو كلّي أو جزئي قوله: (فاستتروا ببيوتكُم، وَأَصلحوا ذَاتَ بينكُم[١٥]، فإنها تحيل المتلقي مباشرة إلى قوله تعالى ﴿**وَأَصْلحُوا ذاتَ بَيْنكُمْ**﴾[١٦]، من دون كدّ ذهن.

ويقرب من هذا الاستدعاء المباشر الذي يحضر في ذهن المتلقي حالما يقرأ قول الإمام: (**أرضيتم بالحَياة الدُنيا من الآخرَة عوضا**)[١٧] فإن المتلقي يستدعي بنحو مباشر قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إذا يقيلَ لَكُمُ انفرُوا في سَبيل الله اثَّاقَلْتُمْ إلَى الأَرْض أَرَضيتُمْ بالْحَياة الدُّنْيا منَ الآخرَة فَما مَتاعُ الْحَياة الدُّنْيا في الآخرَة إلاَّ قليلٌ**﴾[١٨].

ولا يختلف قوله عليه السلام: (**أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال**)[١٩] عن التضمينات السابقة، فاستدعاء مرجعيتها القرآنية واضح يتلخص بقوله تعالى: ﴿**وَيضْربُ اللهُ الأَمْثالَ للنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[٢٠].

وحين يرد تعديل يسير على اللفظ بالحذف أو الزيادة أو بأية آلية من آليات الاشتقاق داخل التركيب الكلي للنص المستضاف يبقى في حدود الإحالة الواضحة التي لا تحتاج إلى كدّ ذهن في عملية الاستحضار، فلفظة (أخذة) في نصّ الإمام عليه السلام الذي قال فيه: (وأخذة العزيز المقتدر[٢١] معدّلة عن المصدر (أخذ) في قوله تعالى:

﴿**أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾[٢٢]، يضاف إلى ذلك تعريف المنكرين (عزيز ومقتدر) في النص المضيف. فهذا التعديل اليسير لم يجعل من القرآنية هنا غير مباشرة كما لم يدخلها في المحورة وفقاً لتوصيفات كل نمط. أما الجمع بين عبارتين مقتطعتين في سياق واحد يجعل منهما موضعا بعد أن كانا موضعين في النص المرجع، لا يضرّ أيضاً في كونهما من نمط القرآنية المباشرة غير المحورة؛ لأن خصيصة الاستدعاء السريع، ووضوح الرابطة بين النصين كفيلان بجعلهما من هذا النمط.

ويدخل قول الإمام عليه السلام: (**فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون؟**)[٢٣] ضمن هذا الاستدعاء فالاستفهام الاستنكاري الأول (أين تذهبون؟) يحيل على قوله تعالى:

﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾[٢٤]، وكذلك الاستفهام الاستنكاري الثاني (أنى تؤفكون؟) فإنه يحيل على قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ فالقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يخرِجُ الْحَيَّ منَ الْمَيِّت وَمُخرِجُ الْمَيِّت منَ الْحَيّ ذلكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾[٢٥]، وقد شكل النصان القرآنيان قرآنية مباشرة الاستدعاء على الرغم من أنهما لم يردا في سياق واحد .

وجاءت الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿**خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبطِلُونَ**﴾ خاتمة لمقطع من نص الإمام عليه السلام جاء فيه (**اشترى هذا المغتر بالأمل، من هذا المزعج بالأجل ،هذه الدار، بالخروج من عز القناعة، والدخول في ذل الطلب والضراعة، فم أدرك هذا المشتري في ما اشترى منه من درك، فعلى مبلبل أجسام الملوك، وسالب نفوس الجبابرة، ومزيل ملك الفراعنة، مثل كسرى وقيصر، وتبع وحير، ومنهم جمع المال على المال فأكثر، وبنى وشيّد وزخرف، ونجّد**

وادَّخر، واعتقد ونظر بزعمه للولد - اشخاصهم جميعاً الى موقف العرض والحساب، وموضع الثواب والعقاب، اذا وقع الأمر بفصل القضاء (وخسر هنالك المبطلون)) [٢٦].

وشكّل هذا الختام قفلا دلالياً لاتكاء النص على القرآن أولاً، ولتعميق مقبوليته كونه موثوق القول من جهتي القائل والمرجع.

وكان هذا الأسلوب نسقاً لمجموعة من النصوص التي قالها الإمام عليه السلام ولاسيما القصيرة منها، إذ كان يختم النص بآية قرآنية من دون تعديل في الأخذ لتثبيت الأمرين اللذين ذكرناهما في توصيف النص السابق.

إذ جاءت الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمنا بالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتحينَ**﴾[٢٧] خاتماً لقوله عليه السلام: **(اللهم اليك أفضت القلوب، ومدت الأعناق ،وشخصت الأبصار، ونقلت الأعناق، وأنضيت الأبدان، اللهم قد صرَّح مكنون الشَّنان، وجاشت مراجل الأضغان، اللهم انا نشكو اليك غيبة نبينا. وكثرة عدونا ،وتشتت أهوائنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين)** [٢٨].

الفصل الثاني

النمط الثاني/ القرآنية المباشرة المحورة

من الأساليب التي اعتمدها الإمام عليه السلام في تضمين الآيات القرآنية داخل نصّه هي التقديم والتأخير، ففي آي الذكر الحكيم يقول البارئ جل وعلا: ﴿**خائنَةَ الأَعْيُنِ وَما تُخفي الصُّدُورُ**﴾[٢٩]، لكننا حين نرجع إلى نصّ الخطبة في نهج البلاغة نجد أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (نحمده على ما أخذ وأعطى، وعلى ما أبلى وابتلى .الباطن لكل خفية، الحاضر لكل سيرة، العال بم تكن الصدور وما تخون العيون)[٣٠] .

ففي ذيل النص نجد الآتي:

- **الصدور مقدمة في حين جاءت في القرآن مؤخرة.**
- **العيون مؤخرة في حين جاءت في القرآن مقدمة.**

وهذا الأمر مما يستدعيه السياق العام للنص، فذيل المقطع السابق ذكره مسبوق بعبارتين هما:

- **الباطن لكل خفية**
- **الظاهر لكل سريرة**

ومن المنطقي أن ينسجم خفية الصدور مع (الباطن) وخيانة العيون الملموسة مع (الظاهر)، أما في سياق الآية فكان الحديث عن عموم علم الله بالأشياء ومن المنطقي أيضا أن نبدأ بالماديات الملموسة وننتهي بالمخفيات غير الملموسة، فكان البدء بالأعين والانتهاء بالصدور، وهو أسلوب دارج في الصياغة القرآنية[٣١].

ومن الأساليب الخاصة بنصوص الإمام عليه السلام التي من خلالها يعدّل في بنية النص المأخوذ، هي تكثيف النص وجعل محورية الدلالة منطلقة من القرآنية وعائدة إليها، بحيث لا يمكن فهم إشارتها من دون العودة إلى المرجعية القرآنية.

ولم يكن ذلك البناء مركوزا في نمط واحد بل تنوعت أنماطه فمرة تأتي القرآنية في مستهلّ النص المكثّف، ومرة يأتي في ذيله.

ففي قوله عليه السلام: (**ألا وان الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله، وان معي لبصيرتي ما لبست على نفسي، ولا لبس علي. وآيم الله لأفرطن لهم حوضاً أنا ماتحه لا يصدرون عنه ولا يعودون إليه**)[٣٢] جاءت القرآنية في مستهل النصّ، إذ تحيل ألفاظه ودلالته إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[٣٣]. فحركة الخلق موكولة إلى مستوى مقاومته لضغوط الشيطان واتباعه، فمن استسلم كان من حزبه، ومن خرج عن ربقته لم يكن منهم.

أما قوله تعالى: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ**﴾[٣٤]، فجاءت إشاراته وبعض ألفاظه الدالة مركوزة في ذيل قول الإمام عليه السلام: (**تزول الجبال ولا تزل. عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك. تد في الأرض قدمك. ارم ببصرك أقصى القوم، وغض بصك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه**)[٣٥].

ولهذا التأخير مقصديته الدالّة، فنهاية أعمالنا وسلوكياتنا وكل ما يصدر منا موكول إلى مشيئة الله، فكل مخططاتنا وسعينا إن لم يتوافق مع المشيئة الربانية لم ينفعنا ذلك، فكان النصر منه حتما وتأكيداً.

ومن خصائص القرآنية غير المباشرة المحورة أنها تأتي في مقدمات الخطب في نهج البلاغة بوصفها مستوى من مستويات تهيأة المتلقي لاستقبال النص لاحتضانه قدسية عليا، ولتطعيم بنيات تراكيبه بصياغات مقطوعة ببراعة بلاغتها وفصاحتها مع إضافة تعديل يؤكد براعة المؤلف الجديد.

ومن ذلك استهلال الإمام عليه السلام خطبته الخامسة والأربعين بقوله: (**الحمد لله غير مقنوط من رحمته، ولا مخلو من نعمته ، ولا مأيوس من مغفرته، ولا مستنكف عن عبادته، ولا تفقد له نعمة، والدنيا دار مني لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء، وهي حلوة خضرة، وقد عجلت للطالب، والتبست بقلب الناظر، فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ**)[٣٦].

فمستهل هذه الخطبة يحيل المتلقي إلى قوله تعالى: ﴿**قُلْ يا عباديَ الَّذينَ أَسْرفُوا عَلى أَنْفسِهِمْ لا تَقْنَطُوا منْ رَحْمة اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ**﴾[٣٧].

ولا يختلف قوله عليه السلام في الخطبة الثامنة والأربعين عن هذا السمت إذ قاربه بقوله عليه السلام: (**الحمد لله كلم وقب ليل وغسق، والحمد لله كلم لاح نجم وخفق ،والحمد لله غير مفقود الأنعام، ولا مكافأ الأفضال أما بعد**)[٣٨]. إذ يحيل مستهل هذه الخطبة إلى قوله تعالى: ﴿**وَمنْ شَرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ**﴾[٣٩].

ولم يكن التعديل في النص المأخوذ لصهره في بنية النص الآخذ عبارة عن مجموعة من الكلمات بل يصل اختزال الأخذ لدرجة الاكتفاء بلفظ أولفظين؛ ليحافظ بهذا القدر على صلته بالقرآن، ويعمّق ارتباطه ببنية النص الجديد المتضمن له.

فقد جاءت لفظة (الحسنيين) إشارة لارتباط قوله عليه السلام: (**وكذلك المرء المسلم ،البريء من الخيانة، ينتظر من الله احدى الحسنيين**)[٤٠] بقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بنا إلاَّ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بكُمْ**﴾[٤١].

أما لفظا (لسان صدق) التي وردت في قوله عليه السلام: (**أيا الناس انه لا يستغني الرجل، وان كان ذا مال، عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، وألمّهم لشعثه، وأعطفهم عليه، عند نازلة اذا نزلت به ولسان صدق، يجعله الله للمرء في الناس، خير له من المال يورثه غيره**)[٤٢] فيحيلان على قوله تعالى: ﴿**وَوَهَبْنا لَهُمْ منْ رَحْمتنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لسانَ بِصدْقٍ عِليًّا**﴾[٤٣].

وجاء لفظا (شقيها وسعيدها) الواردان في القرآن الكريم متعاطفين في قول الإمام عليه السلام: (**اللهم داحي المدحوحات، وداعم المسموكات، وجابل القلوب على فطرتا، شقيها وسعيدها**)[٤٤] للإحالة إلى دلالة الآيتين اللتين ورد فيها اللفظان وربطهما بدلالة النص الآخذ.

ولو رجعنا إلى السياق الآيات اللواتي استثمر منها لفظا أو لفظين فقط على أعلى التقادير لوجدنا أن الأمر يكمن في زيادة ربط الدلالتين القديمة والجديدة برباط وثيق لتحصيل دلالة ثالثة مضافة هي ناتج جمع دلالة النص القديم والحديث.

الفصل الثالث

النمط الثالث / القرآنية غير المباشرة المحورة

حين يتم تعديل النص المستضاف في بنية النص المضيف بنحو الحذف الكثير أو التعديل الاشتقاقي بحيث يصعب الاستدعاء من دون تأمل، وحين تترجح أكثر من مرجعية للنص بسبب المذكور في السطر السابق، لا يكون الأخذ هنا أخذا مباشرا أو مباشراً محوراً؛ لأن تغييب المرجعية والتعديل البالغ في النص المأخوذ يؤكد هذا الاستبعاد.

ففي قول الإمام عليه السلام: (**أما بعد: فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وان الآخرة قد أقبلت وأشقت باطلاع، ألا وان اليوم المضمر، وغدا السباق**)[٤٥] يستدعي أكثر من مرجعية للنص بعضها قرآني بحكم المضمون السياق من مثل ﴿**وَالسَّابِقُونَ**﴾[٤٦] و ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾[٤٧] وغيرها من الآيات التي تتعلق بالأمر الأخروي، وفيه مركز الفعل مشتقاً من الجذر (سبق). فهذه الصياغة تجعل من انتماء هذا الأخذ إلى القرآنية غير المباشرة المحورة، لتحقيق وظيفة دلالية قوامها احتواء الدلالات المتضمنة في الآيات المحتملة في مرجعية هذا النص؛ ليكون مغزى هذا البناء توسع الدلالة.

ولعل زيادة التغييب واحتمالية المرجعية غير القرآنية أكثر تأكيداً لتحقق نمط القرآنية غير المباشرة المحورة،كما في قول الإمام عليه السلام: (**وضرب على قلبه بالأسداد**)[٤٨].

فليس من الضروري أن يستدعي هذا النص آية قرآنية، لكن التأمل في النص وربط علاماته وما يريده من مغازي دلالية تسحب المتلقي الفطن إلى أجواء القرآن الكريم.

وقد أحال الشيخ محمد عبده رحمه الله شارح نهج البلاغة هذا النص إلى آية مباركة بقوله: ﴿**وَجَعَلْنا منْ بَيْن أَيدِيمْ سَدًّا وَمنْ خَلْفهمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصُرونَ**﴾ الأسداد جمع سد: يريد الحجب التي تحول دون بصيرته والرشاد .ويروى بالاسهاب وهو ذهاب العقل أو كثرة الكلام أي حيل بينه وبين الخير بكثرة الكلام بلا فائدة[٤٩].

وما يدعم توجيه الشيخ هيمنة النص القرآني على نهج البلاغة وتشكيله سلطة موجهة لقول الإمام لا بوصفه قارئاً متأثراً بالقرآن فحسب بل لأنه مكلّف بترسيخ تعاليمه في المجتمع بوصفه خليفةً لرسول الله ﷺ. لذا فتوجيه الشيخ رحمه الله راجح بحكم ما ذكرناه، وبحكم تأديته التفسير المقنع للقارئ.

خاتمة البحث

وفي نهاية المطاف نذكر أهم النتائج التي توصّل اليها البحث وهي:

١. قدّم البحث محاولة تطبيقية للمزاوجة بين آليات النقد القديم والحديث وما يتلازم معهما من مصطلحات ومفاهيم من خلال تحليل نصّ قديم برؤية حديثة .

٢. حاول البحث الكشف عن مرجعيات النص المدروس (نهج البلاغة) فتوقف عند (القرآن الكريم) بوصفه النص الأكثر تأثيراً في النتاجات التي جاءت بعد نزوله ولاسيّما نص النهج، فتأكد من خلال البحث أنه كان مرجعية رئيسة في بنائه وصيغة دلالاته.

٣. اعتمد البحث على آلية (القرآنية) بوصفها آلية نقدية حديثة لتحليل النصوص والكشف عن دلالاتها، والتزم بتقنياتها الثلاث: المباشرة غير المحورة، المباشرة المحورة، غير المباشرة المحورة؛ ليكون البحث مادة تطبيقية ابتداءً بالمفهوم وانتهاءً بالأنماط.

٤. خرج البحث بنتيجة مهمة: أن أكثر أنماط القرآنية وروداً في نصوص النهج هي (القرآنية المباشرة غير المحورة)؛ لأن النص كان توجيهياً تثقيفياً لمجتمع اسلامي يحتاج لالزامه بالتوجيه الى أدلة وبراهين مقدّسة ومحترمة، وليس كالقرآن نصّ مقدّس في اعتقاد المسلمين، ولما كانت التقنيتان الأخريان(المباشرة المحورة وغير المباشرة المحورة) تقلل من مستوى ربط المتلقي مباشرة بالقرآن، استعان الامام عليه السلام بالمباشرة غير المحورة لتقوية مستوى الارتباط .

الهوامش

١) خزانة الأدب: ٢/ ٤٥٥.

٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ٤٠٦.

٣) الفهرست لابن النديم: نقلا عن كتاب تأصيل النص: د. مشتاق عباس معن: ١٦٩

٤) دراسة في تعريب بعض المصطلحات (نظرية النص(: د. محمد خير البقاعي: ٥٠، وينظر القرآنية في شعر محمد حسين آل ياسين: د. مشتاق عباس معن من كتاب تأصيل النص: .١٧١

٥) لقد فعّل هذا المصطلح في كثير من الدراسات الأدبية على مستوى الدراسة الأكاديمية من مثل رسالة الماجستير إحسان محمد جواد الموسومة بـ (القرآنية في شعر الرواد) جامعة القادسية / كلية الآداب قسم اللغة العربية بإشراف: أ.د. إبتسام مرهون الصفار سنة ٢٠٠٠ وبحث الأستاذ المساعد الدكتور علي المصلاوي بعنوان (القرآنية في علويات الشيخ صالح الكوّازالحلي) المنشور في مجلة جامعة أهل البيت / ع ٦ س ٢٠٠٨م، ودراسة د. أمجد حميد عبد الله: القرآنية والوعي بالزمن:مجلة سبيل القرآنية ع١٢ س٢ ٢٠٠٨م .

٦) ينظر: تأصيل النص: د. مشتاق عباس معن / ١٥وما بعدها.

٧) المصدر السابق: ١٧٠.

٨) ينظر: القرآنية في شعر الرواد: إحسان محمد جواد: ١٠ وما بعدها.

٩) نهج البلاغة: ج١/ ٣٨- ٣٩.

١٠)الأنبياء: ٣٢.

١١)الصافات: ٦.

١٢)الفرقان: ٦١.

١٣)الأنبياء: ٣٠.

١٤)التوبة: ١١٢.

١٥)نهج البلاغة: ١/ ٧٢.

١٦)الأنفال: ١.

١٧)نهج البلاغة: ١/ ١٠٥.

١٨)التوبة: ٣٨.

١٩)نهج البلاغة: ١/ ١٦١.

٢٠)النور: ٣٥.

٢١)نهج البلاغة: ١/ ١٧٥.

٢٢)القمر: ٤٢.

٢٣)نهج البلاغة: ١/ ١٨٢.
٢٤)التكوير: ٢٦.
٢٥)الأنعام: ٩٥.
٢٦)نهج البلاغة: ٣/ ٤٩٢- ٤٩٣.
٢٧)الأعراف: ٨٩.
٢٨)نهج البلاغة: ٣/ ٥٠٤.
٢٩)غافر: ١٩.
٣٠)نهج البلاغة: ٢/ ٢٧٩.
٣١)توقّف الدكتور فاضل صالح السامرائي عند هذا الأسلوب في كتابه (التعبير القرآني)، ينظر مبحث التقديم والتأخير.
٣٢) نهج البلاغة: ١/ ٦٤.
٣٣)المائدة: ٥٦.
٣٤)آل عمران: ١٢٦.
٣٥)نهج البلاغة: ١/ ٦٤- ٦٥.
٣٦)م-ن: ١/ ١١٩.
٣٧)الزمر: ٥٣.
٣٨)نهج البلاغة: ١/ ١٢١.
٣٩)الفلق: ٣.
٤٠)نهج البلاغة: ١/ ٨٢.
٤١)التوبة / ٥٢.
٤٢)نهج البلاغة: ١/ ٨٢-٨٣.
٤٣)مريم: ٥٠.
٤٤)نهج البلاغة: ١/ ١٤٦.
٤٥) م-ن: ١/ ٩٣.
٤٦)التوبة: ١٠٠.
٤٧)البقرة: ١٤٨.
٤٨)نهج البلاغة: ١/ ٩٠.
٤٩) م-ن: هامش ص / ٩٠.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١) الإيضاح في علوم البلاغة – جلال ٩(الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القز ويني – راجعه وصححه وخرج آياته: الشيخ بهيج غزاوي / دار احياء – علوم التراث / ١٠٤٨هـ –١٩٨٨ م.

٢) تأصيل النص :د.مشتاق عباس معن – ط١– (١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م) – مركز عبادي للدراسات والنشر – صنعاء .

٣) التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي مطابع وزارة التعليم العالي في الموصل – ١٩٨٦.

٤) خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي – المط الخيرية – القاهرة – هـ١٣٠٤ .

٥) دراسة في بعض المصطلحات (نظرية النص): د. محمد خير البقاعي – مجلة (الموقف الثقافي) –: ع٨ س٢، ١٩٩٧م .

٦) الفهرست: ابن النديم – القاهرة.

٧) القرآنية في شعر الروَاد: إحسان محمد جواد – رسالة ماجستير– جامعة القادسية / كلية الآداب – ٢٠٠٠م.

٨) القرآنية في شعر محمد حسين آل ياسين: د. مشتاق عباس معن ـ مجلة الآداب – كلية الآداب – جامعة بغداد .

٩) القرآنية في علويات الشيخ صالح الكواز الحلي :د.علي كاظم المصلاوي – مجلة جامعة أهل البيت–ع٦ س٢٠٠٨م .

١٠) نهج البلاغة : الامام علي بن ابي طالب عليه السلام – شرح الشيخ محمد عبدة خرج مصادره الشيخ الأعلمي – ط١–١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .

الاتساق الصوتي في نهج البلاغة (التنغيم أنموذجا)

م.م. رائدة كاظم فياض

جامعة بغداد

كلية التربية

قسم اللغة العربية

التنغيم

(مصطلحٌ يَدلُّ على تَغَيّر في نغمةِ الصوتِ أو درجته في الكلام ويُسمى أيضاً موسيقى الكلام)[1]. أو (هو تغييرٌ في الأداء بارتفاع الصوت وانخفاضه في أثناء الكلام العادي للدلالةِ على المعاني المتنوعة في الجملة الواحدة)[2].

أما تعريف الدكتور أحمد مختار للتنغيم فجاء على النحو الآتي «التنغيمُ هو تتابعاتٍ مُطَّردة من مُختلفِ أنواعِ الدَّرجات الصوتية على جُملٍ كاملةٍ أو أَجزاءٍ متتابعة»[3]. إنَّ هذا الاختلاف في النغمات يُعَدُّ وسيلةً مهمةً لملاحظةِ المعنى وفَهم المقصود من الكلام وفقاً لأنماط التركيب والموقف الذي قيلت الخطبة أو أي نصٍّ من أجلهِ. وبهذا يُصبحُ للتنغيم وظيفتان: إحداهما نحوية، والأخرى دلالية.

جاءَت دراسةُ التنغيم في البحوث والدراسات الغربية إلى جانب دراسة النبر ،أما في العربية فيرى مُعظمُ الباحثين أَنَّ النبرَ ليسَ ميزةً من مميزاتِ هذه اللغة؛ لأَنَّهُ لا يؤدي وظيفة تمييزية.

أثر التنغيم في تماسك النَّص

أَجمع عَلماءُ الصوت اللغوي على أَنَّ (للتنغيم أثراً في معرفةِ نوع الجملة إن كانت تقريرية أو استفهامية أو غير ذلك، فهو الفيصلُ في الحُكم والتمييز بين الحالتين)[4]. وهو قَدْ يَدلُّ على التَّهكُّم، أو الزَّجرِ، أو الموافقةِ أو الرفضِ، أو الاستغراب والدَّهشة. وكُلُّ ذلك يَتَّضِحُ من خلالِ كيفيةِ قراءةِ الجُملةِ، فنغمة الصوتِ تتغير في كلِّ مرةٍ وَحَسبِ الأداء بعلوها أو انخفاضها، ويدخُلُ تأثيرُ قوةِ اللفظِ واختلاف الترتيب العام لنغماتِ المقاطعِ في معرفةِ فائدةِ التنغيمِ في تنويع الجمل الكلامية[5]. وهذا التنويع يُسْهِمُ في جعل النص متماسكاً ومترابطاً منَ خلال استعمال النغمات بمستوياتها المختلفة، مما يجعل المتلقي مشدوداً إلى صاحب النص عند إلقائه الخطبة أو توجيه أَي كلام آخر مقروءاً كان أم مسموعاً.

فلو ضربنا مثلاً لذلك عندما ننطق التعبير الكلامي: (أَحقاً ما تقول؟) وبصوره

المتعددة، وفي مواقفه المختلفة؛ نجده يصلح لأنْ يكونَ استفهاماً، أو زجراً، أو نفياً وإنكاراً، أو اشمئزازاً واحتقاراً «فلكل مستوىً كلامي نغمة معينة وأداء يختلف عن غيرهِ يُفْهَم دون الحاجة إلى إضافةِ كلمةٍ أخرى»[٦].

اعتمدَ أَغلبُ الخطباءِ في خطبهم على التنوع في النغمات للوقوفِ على المعنى المراد توصيله في العديدِ من المواقف، فكان اختيارهم للنغمات بحسب ملاءمتها للأساليب الكلامية من استفهام ونفي ونهي ونداء وزجر وتهكُّم واحتقار والتي قد يلجأون إليها في معظم خطبهم فكان لهذا التضمنِ أثرٌ متميزٌ في جعل النصوص مُتَّسِقةً متماسكةً؛ ويرجع سبب لجوء الخطباء الى هذا التنوع في النغمات الى عدم وجود علامات الترقيم في الكلام العربي القديم التي اسْتُخدِمَتْ لاحقاً، إذ لم يكن لديهم هذا النظام كما نعرفه اليوم يقول الدكتور تمَامَ حَسّان: «التنغيمُ في الكلام يقومُ بوظيفةِ التَّرقيم في الكتابة، غَيْرَ أَنَّ التنغيمَ أَوضحُ من التَّرقيم في الدِلالةِ على المعنى الوظيفي للجملة»[٧].

«لأَنَّ ما يستعمله، التنغيم من نغماتٍ أكثرَ مما يَسْتعمله الترقيم من علامات ،كالنقطةِ، والفاصلةِ، والشَرطْةِ، وعلامةِ الاستفهام، وعلامة التأثير، وربما أسباب أُخرى»[٨] وهذا الذي جَعَلَ التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة.

أنواع النغمات:

جَعلَ بعضُ الباحثين أنواع النغمات على ثلاثةِ أنماطٍ [٩]، وهي الأكثر شيوعاً:

١. نغمة هابطة.

٢. نغمة مستوية.

٣. نغمة صاعدة.

لكن الدكتور سعد مصلوح جعلها على أربعة أقسام:

١. نغمة مستوية.

٢. نغمة صاعدة.

٣. نغمة هابطة.

٤. نغمة هابطة صاعدة[١٠].

أما الآخرون فقد رَصدوا الأنواع الخمسة الآتية في أَغلبِ بحوثهم:

١. النغمة المستوية: وتشمل:

أ) نغمة مستوية منخفضة.

ب) نغمة مستوية مرتفعة.

جـ) نغمة مستوية متوسطة.

٢. النغمة الصاعدة.

٣. النغمة الهابطة.

٤. النغمة الهابطة الصاعدة.

٥. النغمة الصاعدة الهابطة[١١].

وقد تَعَذَّر تحديد أي التقسيمات السابقة هي الأدق بسبب عدم توافر المختبرات الصوتية في أغلب الجامعات العربية، والمعروف لدى أغلب الباحثين أَنَّ هذه المختبرات هي التي تَمُدُّ الدارس بالعون للتوصُّلِ الى نتائج قطعية بوساطة الأجهزة والمعدات الرقابية.

وسيكون التقسيم الثلاثي هو الأساس في الدراسة القادمة من هذا البحث «لصعوبة التمييز بين الحدود الدقيقة للدرجة العالية والعالية جداً، أو بين النغمة الهابطة والصاعدة، والهابطة الصاعدة»[١٢].

ولابُدَّ من الإشارة الى أنَّ تقسيمات الباحثين للتنغيم في تطور مستمر ولا تقف عند حدٍ ثابت «لأن للتنغيم درجاتٍ لا حصرَ لها، ولا تخضع لهذا النمط القسري من التقسيم، ما دام يُعبِّرُ عن غرض المتكلم، وحالاته النفسية والانفعالية»[١٣].

١) النغمة المستوية

هو تعبير يُطلق على الأداء الطبيعي للجمل بحسب المستوى الموضوع لها أصلاً، فمثلاً الإخْبار له أداء يميّزه ممّا سواه من أساليب العربية، فالثبات على ذلك المستوى يولدّ من خلال أدائه (نغمة مستوية: ثابتة)[١٤].

وهذا المستوى الإخباري (الجمل الخبرية) Declarative Statements هو الغالب على خُطَبِ كتاب نهج البلاغة؛ لأَنَّ الإخْبار من الأَغراض الأساسية والمهمة التي يلجأ اليها أَصحاب الخطب والمواعظ.

ولنأخُذْ الخطبة الثانية من الكتاب، وهي خطبة قالها عليه السلام بعد انصرافه من صفّين (**أَحْمَدُهُ اسْتتماماً لنعمْتَه، اَسْتسلاماً لعزِّته، واسْتعصاماً من مَعْصيَتَه، وأَسْتعَيَنُهُ فاقَةً الى كفايتَه، إنَّهُ لا يضلُّ مَنْ هَداه، ولاَ يئِلُّ مَنْ عاداهُ، ولا يَفْتَقرُ مَنْ كَفاهُ، فَإنَّهُ أَرْجَحُ ما وُزنَ، وَأَفْضَلُ ما خُزنَ، وأَشْهَدُ أَن لا إلهَ إلاّ الله، شهادَةً مُمتَحناً إخلاصُها ،مُعْتَقَداً مُصاصُها، نَتَمَسَّكُ بها أَبداً ما أَبقانا...**)[١٥].

من المُلاحَظ على تراكيب هذه الخطبة انها سارَتْ على نسقٍ واحد بوصلةٍ صوتيةٍ واحدة، على النحو الآتي:

أحمدُهُ استتماماً لنعمتهِ ← مستوى النغمةِ ← واستسلاماً لعزَّتهِ

واسْتعْصاماً مِنْ مَعْصيتهِ ← مستوى النغمةِ

نلاحظ خُلُو هذه التراكيب من (الوقف) وهذا ما جعلها تسير بنسقٍ مستوٍ واحدٍ؛ لأنَّ التراكيب التي تحتوي على الوقف تقتضي التغير في المبنى لتأثرها بعنصر التنغيم[١٦].

أما الجزء الثاني من الخطبة فنجد فيه مستوى كلامياً آخر وهو النفي مما يؤدي الى اختلاف النغمة، فتكون بذلك النغمة الصاعدة التي سندرسها في السطور المقبلة.

في النص الخطابي السابق نلاحظ تداخلا بين المستوى الصوتي بأنواعه الثلاثة من سجعٍ وجناس وتنغيم، إذ كانت نهايات المقاطع متشابهة وهي متمثلة في المقطعين الصوتين (التاء، والهاء) في قوله: [نعمته، عزَّته، معصيته، كفايته].

أما الالفاظ [هداه، عاداه، كفاه] فتشابهت بالصوتين الأخيرين (الألف والهاء) ،ووردت اللفظتان (وزن، خزن) و(الاحسان، والايمان) على نمط الجناس الناقص وبذا تداخلت الأَنواع الثلاثة للسبك الصوتي مع بعضها بعضاً من جهة، ومن جهةٍ أَخرى تداخل المستوى الصوتي مع المستويين الآخرين للاتساق ألا وهما الاتساق المعجمي والاتساق النحوي وكما هو موضح في المخطط الآتي:

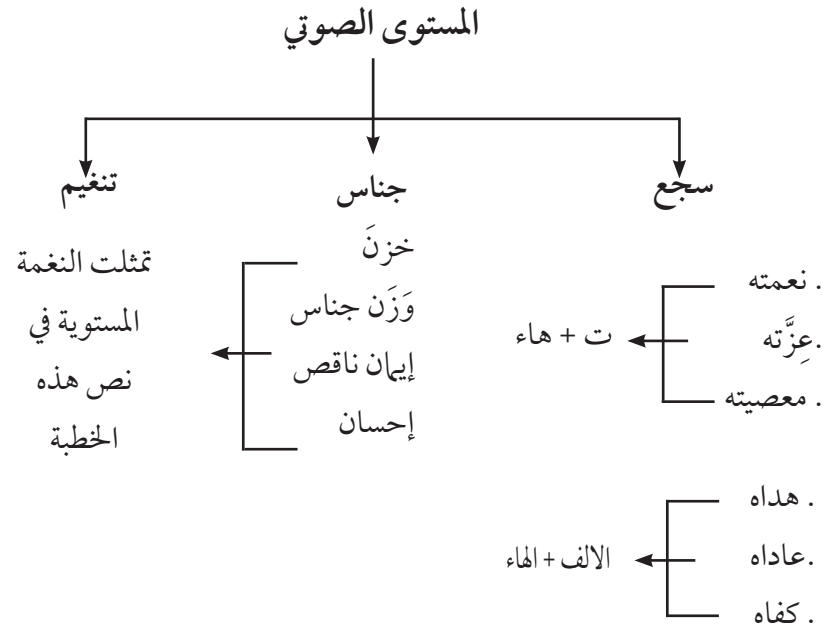

السبك المعجمي

التكرار	تضاد	الاستبدال
تكرار اسم الاستفهام (مَنْ)	-الرحمن -الشيطان	- استبدال الأسماء الحسنى بلفظ الجلالة (الله)

السبك النحوي

الاحالة القبلية	الاحالة البعدية	الوصل
عود الضمير المتصل - الهاء- على لفظ الجلالة المتقدم	عود الضمير (الهاء) على لفظة (الشهادة) في اكثر من موضع	تكرار حرف العطف الواو في أغلب فِقر الخطبة

بلحاظ الترابط السابق يتبين «أَنَّ النصَّ لا يُجيزُ وجوداً مستقلاً لعناصره، إذ لا تكون القيم الجزئية ذات شأنٍ كبيرٍ إلا باشتراكها في القيمة الكبرى المتكونة من ذلك التكوين الأَكبر»[١٧]. وبذلك نَتوصَّلُ إلى حقيقةٍ ثابتةٍ وهي أنَّ الجملَ بالنسبةِ للنص أَشبهُ ما تكونُ سلسلةً من المفردات التي تحكمها قيودُ الربط والترابط الجُملية، وبتر جملةٍ ما من مجموعةٍ من التتابعات الجملية يؤدي الى غموض معناها[١٨].

٢) النغمة الصاعدة

تَتَطَلَّبُ وجودَ درجةٍ منخفضةٍ في مقطعٍ أو أَكثر- أو مستوية تليها درجة أَكثر منها علواً[١٩]. «وقد تكونُ النغمة الصاعدة مركبةً من نغمةٍ منخفضةٍ تليها نغمة متوسطة، وقد تكون مركبة من نغمةٍ متوسطةٍ تليها نغمة عالية»[٢٠].

وهذا العلو في النغمة يُدلّ على الاستفهام اذا كان منطلقاً من قاعدة خبرية مثلاً كنطقِ: (قرأ محمدٌ قصيدةً) بأسلوب الاستفهام (فهذا الإرتفاع عن المستوى الثابت للتركيب الخبري يسمى بـ(نغمة صاعدة)[٢١].

ونجدُ مثالاً لهذا النوع من النغمات في خطبةٍ من خطب كتاب نهج البلاغة في قوله عليه السلام للخوارج: (**أَصابَكُمْ حاصبٌ، ولا بقيَ يمنكُمْ آبرٌ. أَبَعْدَ إيماني بالله ،وجهادي مَعَ رَسول الله t أَشْهَدُ على نَفْسي بالكُفْر! لَقَد ضَلَلْتُ إذاً ومَا أَنَا من المُهتدين. فَأُوبوا شَّر مَآبٍ، وَارْجعوا على أَثرِ الأعقاب**)[٢٢].

في بدايةِ خطبة الامام عليه السلام نجد أسلوب الدعاء والتَّهكّم على الخوارج في كلام الإمام عليه السلام ليكون ذلك زجراً ورادعاً لهم مما استدعي ان تكون نغمة ادائه هي النغمة الصاعدة، أما الجزء الثاني فهو أسلوب التعجب وهو خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي الى معنى مجازي:

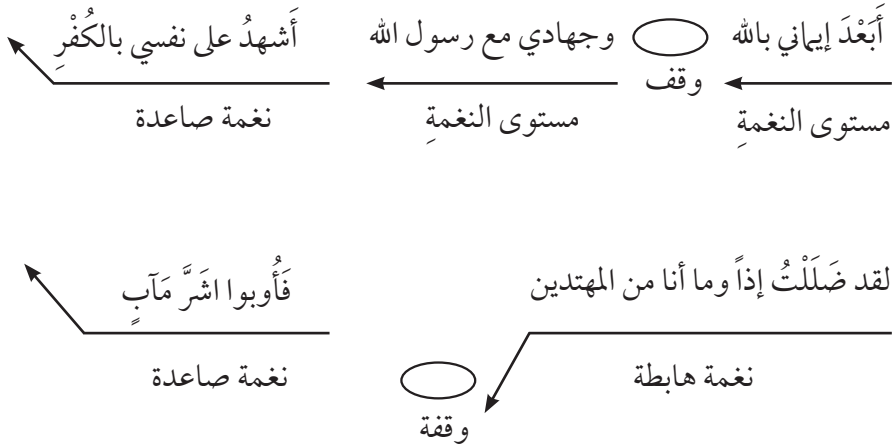

نلاحظ ترتيب النغمات، إذ بدأ الكلام بنغمة مستوية ثم تلتها نغمة صاعدة وهذا التغيير في مستوى النغمات هدفه شَدّ القارئ أو المستمع الى النص عن طريق التنوع في أساليب الكلام (واختلاف المعنى من خلال الإفادة من الوقف على أحد عناصر التركيب فحضور الوقف في النص وحده لا يكفي لفهم النص فهماً كاملاً بَلْ يستدعي وجود التنغيم الكفيل ببيَانِ نوع الأداء للتركيب المميز له ممّا سواه في المعنى مع تماثل المبنى)[٢٣].

٣) النغمة الهابطة

«أداء يتطلب هبوط نغمة الصوت عن المستوى المستوي»[٢٤].

«إنَّ إسْلوب الاستهزاء أو الاستفهام أو غيرها هي الأساليب الكلامية التي يَبرِزُ وجودَ هذه النغمة فيها أَكثر من غيرها من الأساليب»[٢٥].

إرْتَسَمتْ صورة النغمة الهابطة في كتاب لأَمير المؤمنين عليه السلام الى معاوية قالَ فيه: (**وَكيْفَ أَنْتَ صانعٌ إذا انْكَشَفَتْ عَنْكَ جَلابيبُ ما أَنْتَ فيه من دُنيا قَدْ تَبَهَّجَتْ بزيَنتها، وَخَدَعَتْ بلَذَّتها، دَعَتْكَ فَأَجبتها، وقادَتْكَ فاتَّبعَتْها وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَها، ومتى كُنتُمْ يا مُعاوية ساسَةَ الرَّعيَّة، وَولاةَ أَمرِ الأُمّةَ، أَبغَيْر قَدَمٍ سابقٍ، ولا شرفٍ باسقٍ، ونَعوذُ باللهِ بِمنْ لزُوُمِ سَوابق الشَّقاء**)[٢٦].

في رسالته عليه السلام خَرجَ الاستفهام في المقطع الأول من معناه الحقيقي الى معنىً مجازي أَفادَ الاسْتهزاء والسخرية. وهو الاسلوب الذي يستوجب وجود نغمة هابطة.

وكيف أنتَ صانع

نغمة صاعدة

اذا انكشفت عنك جلابيبُ ما أَنتْ فيه من دنيا قد تَبَهَّجَت بزينتها.

نغمة هابطة (استفهام خرج لغرض الاستهزاء)

ومتى كنتم يا معاوية

نغمة صاعدة

ساسَةُ الرَّعيّة، وَوَلاةَ أمرِ الأُمة.

نغمة هابطة (استفهام خرج لغرض التوبيخ)

وقد اشْتَرَطَ علماءُ الصوتِ لتنوع الكلام وتنوع موسيقاه: درجة الصوت ،ونوعَهُ، إضافةً الى شِدَّة الصوت (فبعلوِ درجةِ الصوت وانخفاضها، وجنس صاحب الصوت إنْ كانَ ذكراً أَمْ أُنثى، وشِدَّةِ الصوت؛ بالجهرِ والهمسِ، تَتَحَدَّدُ لنا موسيقى الكلام وتتنوعُ وفقاً لذلك)[٢٧].

وطبيعيٌّ أَنَّ كُلَّ نصٍّ تَوافَرتْ فيه الشروط السابقة لا يخلو أَنْ يكونَ نَصّاً مترابطاً متسقاً بسبب تنوع نغماتهِ وتنوع تراكيبه مما يضفي على النَّص جمالاً اتساقياً بما يحققه الانطباع النفسي المهيمن على كلٍّ من القائل والمُتلقي.

ومن خلال ما مَرَّ بنا من أنواعِ النغمات والأمثلة التي طبقناها من كتاب نهج البلاغةَ نَجدُ أَن أَغلب الخُطب اشتركَتْ في أَكثرِ من نوعٍ من النغمات، بينما سارَتْ بعض الخُطبِ والكُتبِ والحكم والمواعظ على نسقٍ واحدٍ اشتملَ على نغمةٍ صاعدة أو نغمة هابطة، في حينِ كانت أَغلب الخُطب محتويةً على النغمة المستوية وهي النغمة التي ارْتَسَمتْ أَكثر من غيرها على خطب الكتاب الأُخرى. وَوَجدْنا كذلك أَنَّ النغمةِ الهابطة تَمَثَّلَتْ في كُتبهِ وخُطبهِ التي احتوت على أسلوب الأَمرِ أو الزجرِ أو التَّهكُم التي كانت موجَّهةً الى الخوارج أو الى مَن هو أدنى منة منزلةً إداريةً .

الخاتمة

خرج البحث بنتائج مهمة أبرزها:

١. بحكم المنزلة التي كان يتصف بها صاحب النهج وهي خلافته للمسلمين؛فقد جاءت خطبه من منزلة أعلى إلى المتلقين / الرعية؛ هذا الأمر جعل الخطاب يتصف بطبيعة الأمر والنهي؛فارتسمت بذلك النغمة الصاعدة على مثل هكذا خطاب .

٢. لم نجد في الحكم والمواعظ أي حكمة كان التنغيم فيها من نوع النغمة الصاعدة،إذ كانت غالبيتها ذات نغمة مستوية؛ وهذا بالطبع ناتج من أسلوب الكلام الذي يتسم بالهدوء في أثناء إلقاء الموعظة .

٣. في ضوء تطبيق أنواع النغمات على الخطب تبين للباحث القدرة التي تمتع بها الإمام عليه السلام ومهارته في اختيار العبارات التي تتناسب مع الأسلوب اللغوي للنصوص ،فنراه يستعمل النغمة الصاعدة عندما يكون الكلام فيه أمراً أو نهياً أو زجراً ،وكذلك في الخطب التي فيها تهديد ووعيد من الوقوع في الفتن التي تثير غضب الله T لكننا ما نلبث نرى أسلوب الكلام يعود إلى نسقه الاعتيادي بالنغمة المستوية.

٤. هذا التفنن في تنويع أسلوب الكلام أدى إلى التنوع في أسلوب النغمات مما أسهم في جعل النصوص متسقة اتساقا صوتياً مميزاً.

الهوامش

١) علم اللغة العام- الأصوات- د. كمال بشر: ٥٣٣، وينظر: درس الصوت اللغوي- د. أحمد مختار: ١٩١-١٩٢، وينظر: الأصوات اللغوية: ١٣١ د. زين الخويسكي.

٢) علم الأصوات اللغوية: د. مناف الموسوي: ١٣٤.

٣) دراسة الصوت اللغوي: ١٩٥.

٤) الأصوات اللغوية، ابراهيم أنيس: ١٣١ وما بعدها، وينظر: الأصوات اللغوية للخويسكي: ١٢٠.

٥) ينظر: علم اللغة العام- الأصوات- د. كمال بشر: ٥٣٤-٥٣٥.

٦) علم الأصوات اللغوية للدكتور مناف الموسوي: ١٣٥.

٧) اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٢٧.

٨)المصدر نفسه.

٩) مناهج البحث اللغوي: تمام حسان: ١٦٥-١٦٩.

١٠) ينظر: أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية: اطروحة للدكتور مشتاق عباس معن: ٢٣٣ نقلاً عن: دراسة السمع والكلام: د. سعد مصلوح: ٢٦.

١١) وضعَ هذه الأنماط الخمسة الدكتور عبد الرحمن أيوب، إذ أشارَ الى ذلك الدكتور زين الخويسكي في كتابه: علم الأصوات: ١٥٣ وما بعدها، ود. كمال بشر في كتابه: علم الأصوات: ٥٣٤ وما بعدها، ود. مناف الموسوي في كتابه: التشكيل الصوتي: ١٤٣.

١٢) أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية: ٢٣٣.

١٣) م.ن: نقلاً عن كتاب: قضايا صوتية في النحو العربي: ٢٧٤.

١٤) علم الأصوات: زين الخويسكي: ١٢٣ نقلاً عن كتاب (أصوات اللغة:) ١٥٣ وما بعدها .وينظر: علم الأصوات: د. كمال بشر: ٥٣٤ وما بعدها. وينظر: أثر التفكير الصوتي في الدرس العربي: ٢٣٣.

١٥) شرح نهج البلاغة / ١: ١٨٨.

١٦) ينظر: أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية: ٢٣٥.

١٧) علم لغة النص، لبحيري: ١٣٩-١٤٠.

١٨) ينظر: نحو النص/ عثمان ابو زنيد: ١٠٥، نقلاً عنة كتاب: علم النص لفان دايك: ٧٣.

١٩) الأصوات اللغوية/ د. الخويسكي: ١٢٤.

٢٠) المقطع في البنية العربية/ رسالة ماجستير: ٩٥ وما بعدها.

٢١) أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية: ٢٣٣.

٢٢) شرح نهج البلاغة / ٤: ١٣.

٢٣) أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية: ٢٤١.

٢٤) الأصوات اللغوية/ الخويسكي: ١٢٤.

٢٥) التشكيل الصوتي: سلمان العاني: ١٤٦.

٢٦) شرح نهج البلاغة / ١٥: ٨٤.

٢٧) الأصوات اللغوية/ د. الخويسكي: ١٢٤.

المصادر والمراجع

١) علم الأصوات اللغوية- د.زين الخويسكي- دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع- الإسكندرية - ط١- ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٢) علم اللغة العام- الأصوات- د.كمال بشر- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة- ط١-٢٠٠٠م.

٣)علم الأصوات اللغوية - د. مناف الموسوي - توزيع دارالكتب العلمية - شارع المتنبي- بغداد- ط٣ - ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٤) الأصوات اللغوية - ابراهيم أنيس - مكتبة الانجلو المصرية -ط١- ١٩٩٩م.

٥) مناهج البحث اللغوي - تمام حسان - مكتبة الانجلو المصرية- د.ط- ١٩٩٠م.

٦) اللغة العربية معناها مبناها - د.تمام حسان- مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء-ط٢- ١٩٩٤م./ ط١- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٧٣م.

٧) شرح نهج البلاغة- الجامع لخطب وحكم ورسائل أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام تأليف عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي (٥٨٦هـ- ٦٥٦هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- الناشر- مؤسسة أنوار الهدى - إيران- ط١- ١٣٢٩هـ.

٨) علم لغة النص- المفاهيم والاتجاهات - د.سعيد حسن البحيري- الشركة المصرية العالمية للنشر- ط١-١٩٩٧م.

٩)نحو النص إطار نظري ودراسات - تطبيقية- عثمان أبوزنيد- عالم الكتب الحديث للنشروالتوزيع- ط١- ٢٠١٠م.

١٠) التشكيل الصوتي في اللغة العربيةفونولوجيا العربية- د. سلمان حسن العاني- ترجمة د.ياسر الملاح - مراجعة د.محمد محمود غالي- النادي الادبي الثقافي - جدة- ط١- ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

١١) المقطع في البنية العربية - رسالة ماجستير للطالب رمال خلف - كلية التربية للبنات- جامعة تكريت.

١٢)اثر التفكير الصوتي في دراسة العربية - أطروحة دكتوراه للباحث مشتاق عباس معن- كلية اللغات- جامعة صنعاء-١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.